إدغار موران

ثقافة أروبا وبربريتها

ترجمة : محمد الهلالي



العنوان الأصلي للكتاب

Edgar Morin
Culture et barbarie européennes.
Bayard, 2005, Paris.

إدغار موران

ثقافة أروبا وبربريتها

ترجمة: محمد الهلالي

دار توبقال للنشر
عمارة معهد التسيير التطبيقي، ساحة محطة القطار
بلفيدر، الدار البيضاء 20300 - المغرب
الهاتف / الفاكس: 022.34.23.23 (212) - 022.40.40.38 (212)
الموقع www.toubkal.ma - البريد الإلكتروني: contact@toubkal.ma

تم نشر هذا الكتاب ضمن سلسلة
المعرفة الفلسفية

الطبعة الأولى 2007

لوحة الغلاف لعمل الفنان
ميرو

الإيداع القانوني رقم : 2007/3168

ردمك 4-39-496-9954

I. بَرْبَرِيّة أُروبيّة

أود البدء بتقديم لمحة مختصرة عن أنتروبولوجية **البربرية** الإنسانية [1]. فعلى طول امتداد أعمالي، حاولت أن أوضح أن فكرة الإنسان المفكر، والإنسان الصانع، والإنسان الإقتصادي أو المنتج ظلت ناقصة. فالانسان المفكر ذو الذهن العقلاني يمكن أن يكون في الوقت نفسه قادرا على الهذيان والحمق. والإنسان الصانع من جهته، الذي يتقن صنع واستعمال الأدوات التقنية، كان قادرا أيضا منذ بدايات الإنسانية على إنتاج أساطير لا تحصى. ويعتبر الإنسان الاقتصادي الذي يعرّف انطلاقا من مصلحته الخاصة، إنسانَ الاستهلاك الذي تطَرق له هوِيزِيْنَكا Huizinga منذ عدة عقود خلت، أي إنسان اللعب والإنفاق والتبذير. يجب أن ندمج هذه الخصائص المتناقضة في بعضها البعض ونربط فيما بينها. ففي أصل ما سوف نعتبره البربرية الإنسانية يُوجَدُ بالطبع جانب «الحمق» المنتج للهذيان والحقد والازدراء، ولِما كان اليونانيون يسمّونه الـ hybris، أي الإفراط والمغالاة.

---

1. يشكل هذا النص التدوين المصحَّح لثلاث محاضرات أُلقيت بمكتبة فرانسوا ميتران الوطنية بتاريخ 17-18-19 ماي 2005. أشكر جُونْ تيلْزْ الذي شارك، وبشكل لم يكن من الممكن الاستغناء عنه، في التصحيحات والإخراج النهائي للعمل. كما أقدم شكري لجون لوي بويت والذي كانت مراجعته للصيغ التحضيرية جد مفيدة لي.

يمكن أن نعتقد أن ترياق «الحمق» يوجد في «الفكر»، في العقل، لكن لا يمكن تعريف العقلانية بكيفية ملتبسة. نعتقد في غالب الأحيان أننا داخل العقلانية بينما لا نكون في واقع الأمر إلا داخل العقلنة. أي داخل نسق منطقي بشكل تام لكنه يفتقد للأساس التجريبي الذي يسمح بتبريره. ونعرف أنه بإمكان العقلنة أن تخدم الهوى، بل وتقود إلى الهذيان. يوجد هذيان خاص بالعقلانية المغلقة. يخلق الإنسان الصانع أيضا أساطير هاذية. يمنح الحياة لآلهة متوحشة قاسية ترتكب أفعالا بَرْبَرِيَّة. لقد اسَتَعرْتُ من تيلهارد دو شاردان Teilhard de Chardin مصطلح «النوسفير»، والذي يعني في تصوري عالم الأفكار والأذهان والآلهة وليدة الثقافة الإنسانية. وبالرغم من أن هذه الآلهة هي من إنتاج الذهن البشري، فإنها تتمتع بحياة خاصة وبسلطة تمكنها من السيطرة على الأذهان. وبهذه الكيفية تنجب البربرية الإنسانية آلهة قاسية والتي تحثُّ بدورها البشر على البربرية. فنحن نُشَكِّل آلهة تُشَكِّلنا بدورها. لكن لا يمكن أن نختزل الخضوع لسيطرة الأفكار الدينية في البُعْدِ البربري وحده. فالآلهة التي تتملّك المؤمنين بإمكانها أن تحصل منهم ليس فقط على الأفكار الأكثر رعبا، ولكن بمستطاعها أيضا أن تحصل منهم على الأفعال الأكثر سُمُوا.

إن التقنيات التي أنتجها الإنسان، مثلها في ذلك مثل الأفكار، ترتد ضده. وتعرض الأزمنة الحديثة أمامنا تقنية تنفلت من عقالها بتخلصها من الإنسانية المنتجة لها. نتصرف مثل سحرة في طور التدريب. إضافة إلى ذلك، تجلب التقنية نفسها بربريتَها الخاصة، بربريةَ الحساب الخالص، البارد الجليدي الذي يجهل الوقائع العاطفية المميزة للبشر.

أما إنسان الاستهلاك، فالملاحظ أن له ألعابا قاسية مثل ألعاب السيرك أو مصارعة الثيران رغم أن العديد من الألعاب لا تتصف بالبربرية. وأخيرا، فالإنسان الإقتصادي –الذي يجعل المصلحة الإقتصادية فوق كل اعتبار– يميل إلى تبني سلوكات مُتَمَرْكِزَة حول الأنا، والتي تتجاهل الغَيْر وتنمِّي انطلاقا من هذه الخاصية بربريتها الخاصة.

وهكذا نلاحظ بروز ممكنات واحتمالات البربرية افتراضيا في جميع السمات المميزة لنوعنا البشري .لكن الاحتمالات الافتراضية للبربرية ليست هي نفسها في المجتمعات السحيقة في القدم والمجتمعات التاريخية.

فالمجتمعات الأولى انتشرت في جميع أنحاء المعمور منذ عشرات آلاف السنين. وأنتجت تنوعا هائلا في اللغات والثقافات والموسيقى والطقوس والآلهة. وتشترك جميعها في الخاصية التالية : فهي مجتمعات صغيرة تتكون من بعض مئات الأفراد تَعاطوا للصيد وَجَنْي الثمار. إنها مجتمعات مكتفية بذاتها لا تحتاج لغزو أراضي مجتمع آخر. وَخَبرت بكل تأكيد حروبا محلية وربما اغتيالات أيضا[2].

ليست لهذه المجتمعات أية صلة تذكر بالمجتمعات السحيقة في القدم المنبثقة عن ذلك التحول الرائع الذي يُحْتَمَلُ أنه شرع في الخروج للوجود منذ ثمانية آلاف سنة في الشرق الأوسط في حوض الأَنْدُوسْ Indus بالصين، ثم في المكسيك في سلسلة جبال الأَنْدْ Andes، ولقد أنتج هذا التحول الحضارات الكبرى للمجتمعات التي تضم آلاف بل ملايين الأفراد الذين يتعاطون للفلاحة ويبنون المدن وينشؤون دولا وأديانا كبرى، ويبنون جيوشا ويطورون التقنيات بوفرة. وحتى إن كان بإمكان بعض مميزات البربرية أن تميز المجتمعات السحيقة في القدم، فإننا نلاحظ ظهور مميزات البربرية المرتبطة بسلطة الدولة وبالغُلُوّ الجُنُوني في المجتمعات التاريخية. فلقد نفذت غزوات لضمان الحصول على المواد الأولية أو احتياطات المئونة تحسبا لفترات الجفاف أو الأمطار الغزيرة. لكن ما حدث على وجه الخصوص هو احتدام وانفلات الغزوات والتي ستتجاوز الحاجة الحيوية وستتمظهر في إبادات وعمليات تخريب ممنهجة وسلب واغتصاب واسترقاق. لقد اتضحت معالم البربرية واحتد طابعها في ارتباط مع الحضارة.

2. تم التعرف على [illegible] قردة الشامبانزي.

وفضلا عن ذلك، تتميز المجتمعات الكبرى بتطور حضري لا مثيل له في الماضي، فلقد شكلت مدن كبرى تتجمع فيها ساكنة متنوعة وطبقات مختلفة تقوم على سيطرة الأسياد والاستعباد المعمم. وفي قاع هذه المجتمعات السكنية وسراديبها ينمو الانحراف والجريمة. أما في المجتمعات السحيقة في القدم، والتي تتميز بقلة عدد أفرادها، فأغلب هؤلاء يندمجون في حياة الجماعة، وبالتالي سيكون التواجد في الهامش استثناء. كان يسيطر فيها نوع من الأنا الأعلى الجماعي، إضافة إلى عامل أساسي آخر وهو أنها كانت تنتظم وتحكم من خلال أسطورة الجد المشترك الذي كان يشجع رابطة الأخوة بين جميع الأعضاء.

في الأمبراطوريات الكبرى تطورت داخل المدن–الدول عوامل الانحراف والجريمة، وظهرت فيها آلهة كاسرة ومحارِبة: تطالب بالقضاء التام على العدو.

إن بربرية الحرب لا تنفصل، فضلا عن ذلك، عن الأزمنة التاريخية. فتاريخ المجتمعات الكبرى هو تاريخ الحروب التي لم يهدأ لها ساكن، كما وضح ذلك غَاسْتُونْ بُوتُولْ Gaston Bouthoul، مؤسس علم الحرب، ومع ذلك، فهذه المجتمعات أنتجت إلى جانب البربرية ازدهار الفنون والثقافة وتطور المعرفة وظهور نخبة مثقفة. وهكذا فالبربرية تشبه جزءا مكونا للحضارات الكبرى. وكما وضح ذلك وَالْتَرْ بَنْيَامِينْ Walter Benjamin، لا توجد علامة من علاماتِ الحضارة أو فعل من أفعالها لا يعتبر في الوقت نفسه فعلا بربريا. ويطرح سؤال هنا: إذا كان بإمكاننا ومن الواجب علينا مقاومة البربرية، بل ومحاولة كَبْتِهَا، كيف سيمكن ذلك وهي مُكَوِّن للحضارة من المستحيل التخلص منه ؟

ليست البربرية مجرد عنصر يرافق الحضارة، وإنما هي جزء لا يتجزأ منها. فالحضارة تولِّد البربرية، وبالخصوص انطلاقا من الغزو والسيطرة. فالغزو الروماني مثلا، كان من أكثر أشكال الغزو بربرية في العصر القديم بأكمله، نهب كُورَنْثِيَا Corinthe في اليونان، حصار نُومَانْسْيَا Numance في اسبانيا، القضاء التام على قرطاج إلخ...

بالرغم من أن الثقافة اليونانية تسربت إلى داخل العالم الروماني الذي أصبح امبراطورية، ومن ثم مغزى القول الشهير للشاعر اللاتيني «اليونان المهزومة هزمت هازمها الفتاك». وهكذا أنتجت البربرية الحضارة. قاد الغزو البربري الروماني إلى قيام حضارة كبرى. ففي سنة 212 منح مرسوم لِكَارْكَالاَّ Caracalla المُوَاطَنَة الرومانية لكل رعايا هذه الامبراطورية الشاسعة التي تضم شمال افريقيا وجزءا كبيرا من أروبا الشرقية وأنجلترا.

إذا كان بإمكاني فتح قوس هنا –لأنني لا أقيد نفسي بخطاب خطي وإنما أدعو للتفكير في لحظات تاريخية– فآمل التذكير بأن سِيمُونْ فَايْلْ Simonne Weil، تنبأت في مقال لها نشر في «دفاتر جديدة» وصدر عشية الحرب العالمية الثانية، بأن نفس الأمر سيحدث للامبراطورية الأروبية بعد الغزو النازي. تنبأت بانتصار ألمانيا وبازدهار الحضارات بعد قرنين انطلاقا من النموذج الذي أنتجته روما. لكن هذا الأمر لم يمنعها من الانخراط عن قناعة في المقاومة كما هو معلوم. ولم يحل ذلك أيضا من أن تلهم هذه الفكرة اشتراكيين ودعاة سلام، تحولوا في بداية الحرب إلى متعاونين، في الوقت الذي لم تصبح فيه الحرب بعد عالمية، ولكن في الوقت الذي ساد فيه اعتقاد بأن ألمانيا النازية ستسيطر على أروبا بشكل دائم واعتقد الكثيرون بشكل مأساوي أنهم بتعاونهم مع ألمانيا الهتلرية سيساهمون في الواقع في بناء أروبا الاشتراكية.

أشير إلى هذا المقال لأنه أثَّر فيّ أنا أيضا فيما يتعلق بالاتحاد السوفييتي وليس فيما يخص ألمانيا النازية. ففي سنة 1942، وقد كنت في العشرين من عمري، كنت قد اطَّلعت على الجوانب السيئة للاتحاد السوفييتي، فلم أنس محاكمات موسكو، كنت قد قرأت ما كتبه تْرُوتْسْكِي Trotski وسُوفَارِينْ Souvarine، كنت أعتقد آنذاك أن انتصار الاتحاد السوفييتي سيمكن البذور المتضمنة في الايديولوجية الاشتراكية والشيوعية والمُسَاوَاتِيَّة والفوضوية من الازدهار في عهد رائع من الانسجام الاجتماعي. لكنني بدأت أتراجع عن هذا التفكير مع حلول الحرب الباردة وعودة الصرامة الستالينية. ولا يُمكنني اليوم التخلص من الاعتقاد بأن الاتحاد السوفييتي كان بإمكانه

-مع مرور الزمن- المساهمة في تفتح وازدهار مُثُل وبذور الحضارة التي خنقتها بربريته قبل ذلك. فبإمكان الغزوات البربرية أن تقود إلى تفتح حضارة ما، دون أن يؤدي ذلك بطبيعة الحال إلى تَبْرِير بربرياته الأصلية أو نسيانها.

وتوجد أيضا بربرية دينية يجب التطرق لها الآن. في القديم، كان لكل شعب من شعوب الشرق إله حربه الذي لا يرحم الأعداء. ومع ذلك، سمح تعدد الالهة بالتعايش بين مختلف الآلهة. ولقد مكّن تعدد الآلهة عند اليونان من استقبال -فيما يبدو- إله بربري عنيف، إله السُّكر، إله الـ hybris : دْيُونِيزُوسْ Dionysos. وتُبَيِّنُ المسرحية العجيبة لـ أُورِيبِّيدْ Euripide المعنونة بـ «الكاهنات» bacchantes، الوصول المدمر والأحمق لهذا الإله. ورغم ذلك فلقد استطاع دْيُونِيزُوسْ الاندماج في مجتمع الآلهة اليونانية. وفي القرن التاسع عشر، حينما طرح نيتشه Nietzsche السؤال المتعلق بأصل المأساة، أبرز بشكل جلي الطابع المزدوج المميز للمِيثُولُوجْيَا اليونانية. فمن جهة، يوجد أَبُولُونْ Apollon، رمز الاعتدال، ومن جهة أخرى يوجد ديونيزوس، رمز الإفراط. فالثنائية والتكاملية ما بين أبولون وديونيزوس هما اللتان توضحان قولة هِيرَاقْلِيطْسْ Heraclite: «وحدوا بين ما يجمع وما يفرق».

تميزت الامبراطورية الرومانية، قبل مجيء المسيحية، بالتسامح الديني. فالشعائر الأكثر تنوعا، بما في ذلك تلك المتعلقة بآلهة الخلاص، مثل عبادة أُوزِرِيسْ Osiris ومِيتْرَا Mithra، وعقيدة أُورْفِي Orphee، كانت مقبولة على الوجه الأكمل. أما التوحيد اليهودي، ثم المسيحي، وكونيته المحتملة، فقد جلب لاتسامحه الخاص به، بل أستطيع القول إنه جلب بربريته الخاصة، القائمة على احتكار الحقيقة واحتكار كشفها. وبالفعل، فاليهودية لا يمكنها أن تتصور آلهة الرومان إلا كأصنام مدنَّسة، أما المسيحية، وعبر تبشيرها ذي الإرادة الكونية، فلم يكن بوسعها إلا تعميق هذا التوجه. وبينما كان بإمكان اليهودية عدم تجاوز ذاتها في إطار التحالف الامتيازي الذي تعتقد امتلاكه مع الله، بحثت المسيحية في النهاية عن تدمير الآلهة والديانات

الأخرى. وفضلا عن ذلك، في اللحظة التي تم فيها الاعتراف بها كديانة وحيدة للدولة، أدت إلى إغلاق مدرسة أثينا، ووضعت حدا بذلك لكل فلسفة مستقلة.

وشكل استعمال الشيطان سلاحا من أسلحة البربرية المسيحية. ويجب بكل تأكيد التعرف في صورة الشيطان على زارع الفتنة بين الناس، والمتمرد العاصي، وحامل السلب والسيئات، والعدو الفاني لله والناس. فالذي لا يتفق ولا يريد التخلي عن اختلافه فَبِهِ حَتْماً مسٌّ من الشيطان. اعتمادا على هذه الآلة الحِجَاجية الهاذية – إلى جانب وسائل أخرى– مارست المسيحية بربريتها. وبطبيعة الحال، فهي لم تملك حق التفرد في امتلاك واستعمال السلاح الشيطاني. فنحن نرى اليوم أن الشيطان يظهر –أكثر من أي وقت مضى– في الخطاب الإسلامي المُحْتَدِّ للغاية.

وأخيرا أثارت المسيحية المنتصرة في داخلها تيارات فكرية مختلفة وتأويلات متنوعة للرسالة الأصلية. وعوض التسامح معها، تصرفت عبر بلورة عقيدة لا تعرف الرحمة ولا الشفقة، تدين الانحرافات باعتبارها هرطقات، وتضطهدها وتدمرها بحقد باسم ديانة الحب نفسها.

تبين هذه الملاحظات أنه إذا لم تحتكر أروبا البربرية، فإنها عبرت عن إصابتها بكل أشكال البربرية الخاصة بالمجتمعات التاريخية التي تحدثت عنها. فقامت بهذا الأمر، إضافة إلى ذلك، بالكيفية الأكثر دواما، والأكثر كثافة، والأكثر تجديدا أيضا بدون شك. ويرتبط هذا التجديد في البربرية بتشكل الأمم الأروبية الحديثة: اسبانيا، فرنسا، البرتغال، أنجلترا. تختلف الأمم اختلافا عميقا عن الامبراطوريات والمدن–الدول. فهي تضم بداية سكانا أكثر اختلافا مما نجده في المدن–الدول، فأمة مثل فرنسا، مثلا، تدمج فيها إثنيات جد مختلفة. ويكمن الاختلاف الحقيقي بين المدينة–الدولة والامبراطورية في النشاط الدامج الملازم للمدينة–الدولة والذي يوحد عناصر مختلفة في هوية وطنية مشتركة. ونموذج ذلك هو اسبانيا حيث ساد في المنطقة الاسلامية، أي الاندلس، تسامح تجاه المسيحيين واليهود، وساد في المنطقة

المسيحية تسامح تجاه المسلمين واليهود إلى حدود سنة 1492 . ما الذي حدث في هذه السنة الغريبة، سنة 1492؟ لم يحدث فقط اكتشاف أمريكا وبداية غزو العالم الجديد . إنها أيضا سنة احتلال غرناطة، آخر معقل إسلامي في اسبانيا، وبعد ذلك مباشرة، ظهور مرسوم مهم خاص باليهود والمسلمين يُخَيِّرهم بين اعتناق المسيحية أو الطرد . لقد ارتكز هذا الاختراع الأروبي، الذي هو الأمة، على التطهير الديني في البداية .

وسينحو هذا التطهير تدريجيا نحو اتخاذ طابع عرقي، ونجد في اسبانيا، في بداية القرن السابع عشر، أي بعد قرنين من صدور المرسوم الذي يرغم اليهود والمسلمين على الاختيار ما بين اعتناق المسيحية أو الطرد، نجد ساكنة مهمة من الموريسكيين وخصوصا في الأندلس . وكان الأمر يتعلق بالموريين Maures الذين اعتنقوا المسيحية رسميا ولكنهم استمروا في التعبد حسب معتقداتهم سرا داخل مِلْكِيَّات كبيرة خاصة . وكان اللاَّتِيفُونْدِيُونْ، أي ملاكو الأراضي الكبار، يتسامحون معهم ويغضون الطرف عما يفعلونه . وكان بالإمكان القيام بالشعائر الإسلامية في كوخ تم تحويله بسرعة إلى مسجد . بالنسبة لمحاكم التفتيش لم يعد ذلك مسموحا به ولا مقبولا . ولنسجل، فضلا عن ذلك، أن هذه المحاكم لم تجاهر بمبدأ التطهير الإثني . كانت تطارد اليهود الذين اعتنقوا المسيحية واستمروا على يهوديتهم في السر، أو المسلمين الذين اعتنقوا المسيحية واستمروا على إسلامهم بنفس الطريقة . ولكن حينما كانت تتمكن من إثبات صدق إيمانهم المسيحي، كانت تعترف لهم بجميع الحقوق التي يتمتع بها المسيحيون . وتحت تأثير ضغط جديد للاتسامح، تم الوصول إلى طرد الموريسكيين . كان يتم فصل النساء عن أزواجهن والذين كانوا يتعرضون للطرد نحو افريقيا الشمالية . لقد تم الانتقال من التطهير الديني إلى التطهير الإثني– الديني . ونما في أوساط فئة من الأرستقراطية والبرجوازية الاسبانية اتجاه يريد فرض صفاء الدم وطهره، وهو ما شكل منذ ذلك الحين تصورا عرقيا عنصريا . لكن الملوك

الاسبان لم يؤيدوا هذا التوجه، وبذلك لم يتحول صفاء الدم وطهره إلى عقيدة رسمية. وأدقق هنا بالقول إن محاكم التفتيش لم تكن حاملة لهذه الفكرة. فما كانت تبحث عنه هو الصفاء والطهر الديني، لكن هذا الصفاء بدأ يختلط مع صفاء من نوع آخر، أي أن لاتسامحا بدأ يبزغ من آخر.

سأعود إلى هذه النتيجة المتعلقة بهذه المحاولة التطهيرية الدينية في اسبانيا، وهي نتيجة خفية ولكنها عميقة جدا، تتميز بدلالتها على ظاهرة معتنقي المسيحية versos-con، الملقبين قدحيا من طرف المسيحيين بـ«الخنازير» ويقصدون بذلك المعتنقين الجدد للمسيحية بعدما كانوا يهودا أو مسلمين (marranos، les marranes).

ولنسجل كتتمة لهذه الفكرة، أن اللاتسامح الديني الاسباني انتشر جامحا في غزو أمريكا، مؤديا إلى تدمير جميع الديانات القبل-كولومبية. يمكننا بالتأكيد أن نعتبر أن مبدأ التطهير الديني كان حاضرا بشكل جنيني مع انتصار المسيحية في الامبراطورية الرومانية ولكن هذا المبدأ سوف يتلقى دعما هائلا مع ظهور الدولة-الأمة. إلى حد أن الحروب المتعلقة بالدين والتي سوف تندلع بهيجان في القرن السادس عشر، على إثر إصلاح لُوثَرْ Luther وكَالْفَانْ Calvin، ستصبح حروبا أهلية قبل أن تتحول إلى حروب بين الأمم أيضا. وسوف تنتهي بمعاهدات وِيسْتِفَالْيَا Westphalie التي ستزيد من حدة التوجه السائد لدى كل أمة للقيام بالتطهير الديني. وستقيم هذه المعاهدات ديانة الأمير كديانة للدولة، وهو مبدأ هام بالنسبة لألمانيا التي كانت مقسمة إلى إمارات. أما في انجلترا فستتشكل الأَنْكْلِيكَانِيَّة اعتمادا على طرد الكاثوليكية مما جعل الكثير من الكاثوليك يضطرون للهجرة إلى لِيفُورْنْ Livourne أو إلى فرنسا في القرن السادس عشر. لقد كان هناك فعلا استثناء فرنسي، مؤقت، استند على مرسوم نَانْتْ Nantes الموقع سنة 1598 من طرف هِنْرِي الرابع. وهو مؤقت لأنه في ظل حكم لويس الرابع عشر، تم خرقه من طرف الجنود الخَيَّالة وتقييدات حقوق البروتستانتيين. وسوف يُلْغَى كما تعلمون سنة 1685 وسيتبع هذا

الإلغاء بالعديد من النتائج المأساوية.

استمر التسامح راسخا في مدن «الأراضي المنخفضة» التي لم تكن منظمة على أساس مبدأ الأمة، وبالخصوص في امستردام، حيث كان من الممكن عدم التدين. فلقد كان الكلفانيون واللوثريون واليهود متعايشين. ولما فُصِلَ سبينوزا عن اليهودية من طرف الكنيسة لم يرتبط بأي دين واستطاع الاستمرار في العيش بكل استقلالية. وتم طبع العديد من الكتب التي منعتها الرقابة في فرنسا إلى حدود القرن الثامن عشر، تم طبعها فيما بعد في أمستردام.

يمكننا أن نعتبر هذه الظواهر الخاصة بالتطهير كأمراض طفولية للأمم الغربية الحديثة. لكن هذه الأمم ستعرف كيف تنتج هي نفسها التِّرْيَاق المُضَاد لهذا السم. فلقد ظهر تصور جديد للأمة من وحي الأنوار وانطلاقا من الثورة الفرنسية. ففي 14 يوليوز من سنة 1790، أي بعد سنة من سقوط سجن البَاسْتِيْ، توجه مندوبون من جميع أقاليم فرنسا للمشاركة في حفل الفِيدِرَالِيَّاتْ الكبير معبرين بذلك عن قصدهم الجماعي في أن يصبحوا جزءا من الأمة الكبيرة : فأمة مثل فرنسا تم تصورها كنتيجة لإرادة مشتركة. يتعلق الأمر بتطور فكرة عن ذهن مشترك وإرادة مشتركة أكد عليها في القرن التاسع عشر مفكرون مثل رِينَانْ Renan الذي يعتبر أن «وجود أمة هو استفتاء يومي». وتتأكد صحة هذه الفكرة بالتعارض مع نظريات الفلاسفة الألمان مثل هِيرْدَرْ Herder وفِخْته Fichte اللذين ركزا بالأحرى على الأرض واللغة والثقافة لتحديد أمة من الأمم. وسنعثر على هذا التعارض من جديد في النزاع الفرنسي–الألماني حول إقليم الألزاس– اللورين. فبالنسبة للفرنسيين، يعتبر الألزاس والألزاسيون فرنسيين بسبب الإرادة، وبسبب العقل الفرنسي الذي يتمتع به السكان. أما الألمان فيدافعون عن ألمانية الألزاسيين بسبب انتمائهم لإثنية وثقافة ألمانيتين.

وفي جميع الحالات، فإن فكرة حديثة عن الأمة تتحول إلى واقع مستلهمة التصور الثوري بقوة: إدماج الإثنيات المختلفة بواسطة التعليم، اللائكية، وسائل

الاتصال، تطوير الطرق والسكك الحديدية، دون أن ننسى أيضا دور الحروب. فالحروب تدمج اعتمادا على كراهية العدو والإثنيات الأكثر اختلافا في الجماعة الوطنية، لنأخذ مثال سكان إقليم بروطانيا الفرنسي (البروطانيون): فالوعي الخاص بالـ «Bigouden»، كان يتحدد ولايزال إلى اليوم بكيفية ما في علاقته بالشعب المجاور أي بالـ «Capistes». ولكن بمجرد التحاقه بالجيش قبل بلقب الـ «بروطون» Breton، وهكذا تحولت هوية كانت بالنسبة له بعيدة، ومجردة إلى هوية ملموسة، واكتشف بالخصوص جزءا من هذا التعقيد الذي يكونه : فهو بروطون وفرنسي في الوقت نفسه. أي أن الحروب ساهمت في عملية الإدماج.

بطبيعة الحال، لم تتخلص أروبا بسهولة من القضايا الإثنية-الدينية وبعلاقاتها بتصور معين عن الأمة. وهذا ما يوضحه مشكل إرلندا الشمالية الذي يوجد على أبواب الحل. وتطرح اليوم أيضا مشكلتا إقليم الباسك وكورسيكا، وهما بدون شك هامشيان وثانويان.

لقد مكننا القرن العشرون من قياس درجة البربرية الناتجة عن فكرة الأمة حينما تقوم على إرادة التطهير الإثني. بطبيعة الحال، ليس من الممكن اختزال الأمة إلى نتائجها البربرية، بما أنها أيضا فاعل إدماج بين الإثنيات. ومن جهة أخرى، فالقرن العشرون اخترع وحشية الأمة القائمة على الإثنية الواحدة. ففي صلب الامبراطوريات التي سادت في أروبا الوسطى وأروبا الشرقية في بداية القرن العشرين -الامبراطورية الأوسترو -هنغارية، العثمانية، القيصرية-... كانت قوى الإدماج والوفاق بين الشعوب تفعل فعلها. ففي الامبراطورية العثمانية على سبيل المثال كان التسامح الديني سائدا، وليست الإرادة المستميتة لفرض اعتناق الدين الاسلامي. كما أن نمط الحكم الذي يقضي باقتطاع الضرائب من طرف السلطة الدينية، سمح لليهود والكاثوليكيين بالتعايش في نفس المدينة. وتعتبر سراييفو المثال الرائع عن اجتماع الكروات الكاثوليك والصرب الأورثودوكس واليهود السفرديون والسلافيون الذين

اعتنقوا الاسلام. إن خاصية التعدد الإثني هذه، هذا الخليط من الثقافات الذي يبدو لنا كعلامة إيجابية للإمبراطورية العثمانية، تحول إلى كارثة بعد تفكيكها. أما فيما يخص الامبراطورية الأوسترو-هنغارية، فلقد اتجهت شيئا فشيئا، قبل الحرب العالمية الأولى، بالرغم من الانشقاقات وغضب شعوبها العديدة وبسبب ذلك أيضا، نحو الاعتراف بنوع من الاستقلال الذاتي والتعايش السلمي بين الهويات الوطنية: الهنغاريون، التشيكيون، الكرواتيون. ولسوء الحظ، فإن إرادة المنتصرين سنة 1918، وبالخصوص فرنسا، أدت إلى تفكيك هذه التوازنات. كان كْلِيمَانْصُو Clemenceau مقتنعا أن الكتلة الأوسترو-هنغارية كانت معقلا للكاثوليكية. وهكذا فرض المنتصرون تَكَوُّن الأمم التي وجدت نفسها -بفعل الانفجار والتقسيمات التعسفية- غارقة فجأة في منطق التعدد الإثني المميز للأمم الحديثة (بالنسبة لصربيا واليونان فقد تحررتا في القرن التاسع عشر). والحالة هذه، فإن كل أمة من الأمم -الضامة لأقليات إثنية ودينية هامة- أرادت أن تتحقق في صيغة إثنية واحدة. وصف المؤرخ توينبي Toynbee -الذي كان حاضرا إبان قيام الحرب اليونانية/التركية سنة 1921- جلب الفكرة الغربية للأمة إلى تلك المناطق بالكارثة. فلقد تم القيام بتطهير مزدوج تركي يوناني آنذاك. فالأتراك طردوا الساكنة اليونانية المهمة في آسيا الصغرى والذين كانوا هناك منذ القدم، وتم ترحيلهم إلى مَقْدُونْيَا Macedoine، أما السكان الأتراك المقيمون في مَقْدُونْيَا فتم ترحيلهم إلى تركيا.

وفي سنة 1990، كانت الأمة اليوغسلافية بدون شك غير مكتملة في سيرورتها الهادفة لإدماج الشعوب المكونة لها، لكن هذه السيروة كانت تسير نحو هدفها. صحيح أنها عانت من الديكتاتورية ويمكن اعتبارها وكأنها مفروضة من طرف التوتاليتارية، وهي توتاليتارية يمكن وصفها مع ذلك بالاعتدال بعد القطيعة مع الاتحاد السوفييتي. هذه الأمة غير المكتملة تفككت إلى ثلاثة أمم في عملية اندفاع هائج للبربرية الحربية وللقسوة. كان التطهير الإثني هدفا مشتركا بين الصرب

والكرواتيين الذين طردوا ساكنة هامة من الصرب. ففي سراييفو، بقي نوع من التعدد الإثني، فهناك صربيون لازالوا يقومون بدورهم في السلطة والصحافة إلخ... إن شر التطهير يتجسد مرة أخرى بالتأكيد بطريقة سلمية، عبر الفصل ما بين التشيكيين والسلوفاكيين.

لا أتحدث هنا صراحة عن التطهير النازي، وهو موضوع فصلي الثالث، والذي يمكن اعتباره كأوج الهوس التطهيري لأمة، والذي ينهل لسوء الحظ، جُذُورَهُ من التاريخ الأروبي. ومع ذلك، أسجل أنه بعد انتصار الحلفاء سنة 1945، تمت ملاحظة ظواهر تطهيرية للسكان الألمان والذين تم ترحيلهم من سِيلِيزْيَا Silésie التي أصبحت بولونية، ليعاد ترحيلهم من مرتفعات السُّودِيتْ Sudétes التي عادت لتصبح تشيكية. كما تم ترحيل بولونيين أنفسهم من المناطق الأكرانية الملحقة بالسوفييت، ولازالت هناك في أممنا الغربية أقليات مقتنعة أن الحضور الغريب للمهاجرين المُجَنَّسين يلطخ الهوية الوطنية. فَكُرْهُ الأجانب ومعاداة اليهود مستمران على الرغم من الإدماج الأروبي. فالنزعات الوطنية الشوفينية القائمة على فكر الطهر والصفاء لم تمت. ففي النمسا، هناك حركة هَايْدْرْ Haider، وفي ألمانيا حركات النازية الجديدة، وفي الأراضي المنخفضة وفي فرنسا تبدو هذه الحركات هامشية وتدخل في حكم الأقليات، كان بإمكانها أن تكتسي أهمية معينة في حالة الأزمات. يجب ألا ننسى أنه إبان الأزمة الكبرى لسنة 1929، والتي كانت عنيفة جدا في ألمانيا سنة 1931، تمكن حزب صغير، هو الحزب النازي، والذي كان من المستحيل أن يأمل في الحالات العادية، تجاوز نسبة 15 أو 18% من الأصوات، تمكن من تحقيق 35% من الأصوات.

فالاتجاهات البربرية توجد بجوار الاتجاهات المتحضرة، وكما أنه في صلب الامبراطوريات التي سادت فيها بربرية الغزو الحربي، رأت النور أشكال رقيقة من الحضارة، فإنه في صلب الأمم نلاحظ إلى جانب الاتجاهات التطهيرية ازدهار الفنون

والثقافة والمعرفة. وهكذا فاسبانيا المطهرة من العصر الذهبي أنتجت لُوبِّي دُو فِيجَا Lope de Vega وكَالْديرُونْ Calderon وكُونْغُورَا Congora ومجموعة من كبار الفنانين. ونفس الشيء بالنسبة لفرنسا «المطهرة» حسب مرسوم نانت، فإنها مع ذلك بلد كبار الكتاب الكلاسيكيين، لا أنسى أبدا هذا الطابع المزدوج الذي يدل على تعقد الحضارة.

أنتقل إلى ما أسميه «بربرية الغزو الحربي». إن عمرها يتجاوز ألف سنة، ولكنها وجدت أشكالها الحديثة في الاستعمار. يمكننا أن نعتبر، بتبسيط الأمور، أنها بدأت مع غزوات الإسكندر. ومع ذلك، فهذه الغزوات لم تكن بربرية بالمعنى الدقيق للكلمة. فالاسكندر كان يحترم آلهة الحضارات المختلفة التي قام بغزوها. وفي كل مدينة، كان يقوم بتزويج المئات من جنوده بفتيات شابات بالبلد الذي تم غزوه، ممهدا بذلك لحضارة تمتزج فيها الأعراق. لكن حالة الاسكندر تبقى حالة فريدة من نوعها. أما الغزاة الكبار الآخرون فكانوا مرعبين. فجِينْجِسْ خَانْ Gengis Khan، الغازي المنغولي من القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر، زرع الموت والخراب في الشرق والصين وكذلك في الغرب مكونا امبراطورية شاسعة الأطراف لكن هذه الامبراطوريات التي لا حدود لها لا يمكنها أن تستمر في الوجود، وذلك بالضبط لأنها شاسعة وبلا حدود، فهي لا تملك أي عامل للإدماج. وهكذا فامبراطورية جينجس خان لم تعمر إلا قرنا واحدا، وبعد ذلك بقرن من الزمان شكل تَامِرْلاَنْ Tamerlan (1336–1405) امبراطورية رائعة وزعها فورا بين أبنائه الأربعة.

إن عمل الغزو المنجز من طرف الأمم الأروبية كان من نوع آخر وتميز خصوصا بالاستمرارية. ولقد استفاد من التفوق العسكري الذي تمنحه الأسلحة النارية. وهكذا، ففي البيرو، استطاعت مجموعة صغيرة من الخَيَّالة والمسلحين القضاء على امبراطورية عظمى كانت تمتد من شمال خط الاستواء حتى جنوب الشيلي. لكن غزو الميكسيك كان أكثر تعقيدا وتشابكا. فكُورْتِسْ Cortes استعان بكيفية ما

باستراتيجية امتزاج الأعراق، فهو تحالف مع أمم ترزح تحت سيطرة الأزتيك، وكانت بالتالي غير راضية على تقديم الإتاوة لهؤلاء، وبالخصوص تقديم مراهقيهم للتضحيات، بل لقد قيل إن المكسيك تم غزوه من طرف المكسيكيين. فمجموعة كورتيس الصغيرة (وكان كورتيس نفسه مرتبطا بامرأة هندية) تمكنت من الاستفادة بعد مراحل متنوعة من دعم هؤلاء السكان ولكن رغم ذلك فهذا الغزو كان باعثه هو الطمع والجشع وتعصب لا نظير له.

هذا الطمع، غذته أسطورة الـ «أُولْدُورَادُو»، فبعد العثور على قشور الذّهب على جدران معبد Cuzco في البيرو، تمنى الناس اكتشاف مصادر مدهشة للذهب، وهو ما يشهد عليه الفيلم الرائع لهرزوغ Herzog بعنوان «أغير Aguirre»، أو «غضب الله». لكن التعصب الديني لم يكن أقل شأنا وتأثيرا : فلقد تم تدمير معبودات شعب الأَنْكَا ونتج عن الغزو فضلا عن المذابح نسبة وفيات كارثية في المكسيك كما في البيرو. وكان سببها جلب الأمراض الأروبية إلى المنطقة، مثل السل، وهي الأمراض التي لم يكن السكان المحليون يمتلكون المناعة ضدها، وعوض التبادل الثقافي، تم تبادل الميكروبات والفيروسات. ومقابل السل، عم مرض الزهري الغربَ، ووصل من خلال القوافل إلى الصين. كما أحدثت الكحول دمارا هائلا، ومنذ ستة أو ثمانية آلاف سنة، قضى الانتخاب الطبيعي في القارة العتيقة على الأجسام التي لا تقاوم الكحول، لكن هذا لم يكن ينطبق على سكان أمريكا الشمالية المساكين. وهناك سبب آخر لنسبة الوفيات الكثيفة بالتأكيد ألا وهو الرق. فالسكان الأصليون تم استغلالهم ببشاعة من أجل استخراج فضة معادن «بْتُوزِي» Ptosi ونقل السفن الشراعية إلى اسبانيا محملة بالذهب والفضة. وأمام الانخفاض الديمغرافي لجأ الغزاة إلى النخاسة المكثفة. وكان استرقاق السود سائدا في معظم القارة الأمريكية، وكما تعلمون ذلك، فاستمرار الرق في ولايات جنوب الولايات المتحدة الأمريكية كان سببا لحرب الانفصال. ففي فرنسا، لم يتم القضاء على الرق في المستعمرات إلا في سنة 1848 بفضل فيكتور

شولشر Victor Schoelcher . لكن ستستمر بقاياه وآثاره. أما بخصوص الاستعمار، فإن المستعمرين الإنجليز والفرنسيين والألمان والبرتغاليين أيضا أطلقوا العنان لتصرفاتهم الاستعمارية في هذا الشأن وخصوصا في افريقيا. ولقد روى أندري جيد Andre Gide، إبان رحلته إلى الكونغو، الكيفية البشعة التي تم بها استرقاق السود العاملين في سكة الحديد الرابطة ما بين الكونغو والمحيط. هذه البربرية الكولونيالية المتصفة بقساوة مفرطة، استمر وجودها في فرنسا في القرن العشرين نفسه، كما تشهد على ذلك مجزرة صطيف المرتكبة في اليوم الأخير للحرب، أي في 8 ماي 1945، والاغتصابات العديدة إبان حرب الجزائر.

في آخر المطاف، نلاحظ اندفاعا هائجا لخمسة قرون من البربرية الأروبية، خمسة قرون من الغزو والاستعباد والاستعمار. بالطبع، لقد ترافقت البربرية بل حملت مفعولات حضارية. فإبان عولمة هذه البربرية الأروبية، حدثت امتزاجات بين الثقافات، تبادلات، اتصالات خلاقة. هناك سجال اليوم بخصوص توجيه يهدف إلى الإشارة في كتب التاريخ المدرسية إلى المميزات الإيجابية للاستعمار الفرنسي بالجزائر في المستعمرات السابقة بإفريقيا. إن المسألة تخص معرفة ما إذا كانت هذه الخصائص الإيجابية هي التي تحتل مكان الصدارة أم أنها مجرد ظواهر ثانوية. إن سؤالا من هذا القبيل ينبغي أن يعاد وضعه في إطار أعم. وينبغي التأكيد على التعارض والتعقيد الملازمين لتحديد ما ينتمي للبربرية وما ينتمي للحضارة، وليس المقصود من هذا تبرير تصرفات البربرية، وإنما الهدف هو الفهم الجيد لهما وتجنب سيطرتهما علينا بشكل أعمى.

أريد أن أختم بالحديث عن شكل آخر من أشكال البربرية والذي لازال مستمرا اليوم. لقد تشكلت المجتمعات التاريخية التي تحدثت عنها بالتصفية التدريجية للمجتمعات الصغيرة العتيقة التي وجدت قبلها، ولكن مع التدمير الذي لحق الإنسانية العتيقة والشعوب التي لم تكن لها دول، والذي اتخذ شكل إبادات جماعية لم يتحقق

إلا مع الانطلاق العالمي للحضارة الغربية. ففي تاسمانيا Tasmanie، تم القضاء نهائيا على السكان الأصليين. وفي أستراليا أصبح السكان الأصليون شبه منعدمين، وفي أمريكا الجنوبية وبالتحديد في جنوب الشيلي، تمت تصفية شعب الرحل البحريين، الألاكالوف Alakalufs، الذين كانوا يستقبلون الملاحين أثناء مرورهم في القرن السابع عشر أو القرن الثامن عشر. في أمريكا الشمالية، بعدما أهين السكان الهنود –لأن المعاهدات التي أبرمت مع السلطة السياسية لم تحترم– نجدهم اليوم يعيشون في مساكن غير لائقة وفي غيتوهات وأماكن محجوزة لهم. وتدافع الجمعية التي تحمل إسم «Survival International» عن حقوقهم بحيوية وبصواب كبيرين في آسيا. وتم تغييب قرويي شبه الجزيرة الهند الصينية بشكل تام من طرف الشعوب المسيطرة. وفي افريقيا السوداء يمارس البانتوس Bantous هجوما شبه استئصالي على البوشيمانس Bouchimans. كما أن مساحات كبيرة من غابة الأمازون العذراء هي في طور التدمير، مجبرة آخر الشعوب المستقلة على الهجرة إلى الضواحي البئيسة للمتروبولات أو للإنقراض. تستمر البربرية في القيام بأفعالها ورغم ذلك، يجب التأكيد على مقاومتها كما هو الشأن في البرازيل حيث أُسِّست الجمعيات المناضلة من أجل حماية السكان الأصليين وحقوقهم.

أكرر أن بربرية الغزو الأروبية لم تعرف نهايتها بعد الحرب العالمية الثانية. فبالنسبة لفرنسا، لم تعرف نهايتها إلا مع حرب الجزائر، وستنتهي فيما بعد بالنسبة للبرتغال مع أنجولا والموزنبيق. لقد قطعت أمم أروبا علاقاتها مع الكولونيالية، بل تخلت الأمم الأروبية شيئا فشيئا –فما يتعلق بالبربرية التطهيرية– وبفضل تشكيل فضاء أروبي، عن النزعة القومية المرتكزة على الصفاء والطهر الإثني. نحن إذن في عصر تعرف فيه البربرية الأروبية تراجعا كبيرا، وحيث يمكن للترياق الثقافي الأروبي الذي لعب دورا في هذا التراجع، أن يسمح بتحديد هوية أروبا.



II. التّرياقَاتُ الأرُوبيّة

(الثّقافةُ الأروبِيّة كمضَادّاتٍ وَاقِية)

ربما يبدو لكم أنني أعطي لعرضي هذا شكل مُصنَّف تاريخي سريع للغاية. لكن الخيط الرابط تاريخيا الذي أتبعه ليس بالنسبة لي وسيلة لتقديم عرض كرونولوجي لظاهرة البربرية، ولكنه وسيلة لفهمها.

في القرن السادس عشر، حدث تحول في أروبا الغربية، حيث شاهدنا في نفس الوقت ازدهارا اقتصاديا ونموا للمدن، ولكن أيضا تكون المدن الحديثة. منحت النهضة من جديد الحياةَ للإرث اليوناني واللاتيني. وبتعبير آخر، هذه العودة إلى اليونان عملت على تفجير الطوق اللاهوتي وأنتجت استقلالا ذاتيا للفكر. وسيسمح هذا الأخير بتحقيق ازدهار الفلسفة والعلوم الحديثة. كان هناك بالتأكيد فكر عقلاني في صلب اللاهوت، وخصوصا في مذهب توما الإكويني، لكنه ظل تحت المراقبة الدينية. يتطور العلم مرتكزا على أربعة مرتكزات: النزعة التجريبية، العقلانية النظرية، التحقق والخيال. والنهضة هي أيضا عصر تطور النزعات الانسية، وتطور ثقافة تقوم على إدماج الثقافة اليونانية واللاتينية. في ذلك العصر، تميز العديد من المفكرين

بالعقل الموسوعي حيث كانوا يتقنون العربية والعبرية واليونانية واللاتينية.

فإبان النهضة بدأت تتكون النزعة الإنسية الأروبية. ويمكن تقديم جوابين مختلفين كل الإختلاف عن بعضهما البعض عن التساؤل حول ماهية النزعة الإنسية. نجد الجواب الأول عند الفيلسوف البولوني لِيسْزِيْك كُولاَكُوفْسْكِي Kolakowski Leszek الذي يرى أن النزعة الإنسية الأروبية تستمد منبعها من اليهودية والمسيحية، ففي التوراة نجد أن الله خلق الإنسان على صورته، وفي الإنجيل نجد أن الله يتجسد في كائن إنساني. لكن الفيلسوف التشيكي يَانْ بَاتُوكَا Jan Patocka يعترض على هذا الموقف بالقول إن منبع النزعة الإنسية الأروبية يوناني، وذلك لأن الذهن الإنساني وعقلانيته أكدا وأثبتا استقلاليهما الذاتيين في الفكر اليوناني. كما أن الإلهة أثينا في المدينة–الدولة الديمقراطية الأثينية لا تحكم وإنما تحمي وترعى. والديمقراطية تعني ما يلي : تَحَكُّمُ المواطنين الديمقراطيين في حكومة المدينة–الدولة.

يمكن أن نعتبر أن المنبعين لا يلغيان بعضيهما البعض في الواقع، بل هما مترابطان، الشيء الذي أدى إلى تكون النزعة الإنسية الأروبية. إن المنبع الأول حيث الإنسان هو صورة عن الله وحيث يتجسد الله في الإنسان، هو الذي أدى بكل تأكيد إلى احترام الحياة الإنسانية، وقاد أيضا إلى النزعة الساذجة المتمركزة حول الإنسان، وسيصبح بذلك مصدرا لجنون العظمة. فبعد تخلص الانسان من الله سيهيمن على مكان الذات، وبالتالي سيصبح مركزا للكون. لكن حين يتعلق الأمر بدعم النزعة الإنسية الأروبية فيجب أن نشير، وهو ما لم يقم به أي من الفيلسوفين، إلى رسالة المسيح ذاتها، هذه الرسالة تتحدث عن الرحمة والمغفرة. إنها روح الأخوة التي سوف تستخرج من هذه الرسالة لتنضم إلى العقلانية اليونانية. سيرتبط العاطفي بالطابع الجليدي للعقلانية لتشكيل النزعة الإنسية الأروبية.

لهذه النزعة الإنسية وجهان: أحدهما مسيطر والآخر أخوي، وهو ما يسبب في حدوث غموض هام حول المصطلح بالخصوص في القرن العشرين. فالوجه الأول

للنزعة الإنسية ذلك الذي ينكشف باعتباره وهميا حتى لا نقول هاذيا، يضع الإنسان مكان الله، أي الذات الوحيدة في الكون، ويخصه بمهمة هي غزو العالم. إنها المهمة التي يسندها ديكارت للعلم: جعل الإنسان سيدا ومالكا للطبيعة. وسوف تستأنف الرسالة الديكارتية من طرف بوفون Buffon، ثم من طرف كارل ماركس، ولم تنفجر هذه الرسالة القوية البروميثوسية في الأخير إلى شظايا إلا ابتداء من سنة 1970 أي في عهد قريب جدا. ندرك منذئذ أن السيطرة على الطبيعة والتي لا تقبل في الواقع التحكم، تقود إلى تدهور المحيط الحيوي، وكنتيجة لذلك، إلى تدهور الحياة والمجتمع الإنسانيين: هذا النمط من التحكم له طابع انتحاري. وفضلا عن ذلك، نعرف منذ الآن ونعي ضآلة كوكب الأرض داخل المنظومة الشمسية، وضآلة المنظومة الشمسية داخل المجرة، وضآلة مجرتنا داخل الكون. لذلك علينا أن نتوجه نحو الوجه الثاني للنزعة الإنسية ذلك الذي يفرض احترام جميع الكائنات الإنسانية كيفما كان جنسها، عرقها وثقافتها وأمتها.

في الواقع، إذا كانت هذه النزعة الإنسية مقبولة مبدئيا بالنسبة لجميع الناس، فإن الغرب الأروبي كان قد جعلها تقتصر على المنتسبين إليه، معتبرا أن الشعوب الأخرى كانت متخلفة، تعيش وفق مواصفات العهود السحيقة، أي أنها بدائية. كان لوسيان ليفي–برول Lucien Lévy-Bruhl مثلا يعتبر البدائيين ككائنات طفولية وغامضة، منحبسة داخل الفكر السحري. ونسي وجود عقلانية في كل شكل من أشكال الحضارة، على الأقل في صناعة الأدوات واستعمال الأسلحة وممارسة الصيد. يوجد في كل مجتمع وبشكل متزامن، فكر عقلاني تقني وعملي، وفكر سحري أسطوري ورمزي. وهذا ينطبق على مجتمعنا، ويبدو لي من الأهمية بمكان الإشارة لذلك. في وجهها الثاني، ارتبطت النزعة الإنسية بتطور العقلانية النقدية، بل والتي تمارس النقد الذاتي. نرى ذلك مثلا، في «امتداح الحمق» لإيراسم Erasme، والمعبر عنه بطبيعة الحال بصيغة حذرة. وبدا إيرَاسْمْ في بقية أعماله، بالرغم من امتلاكه عقلا متسامحا،

متحفظا إلى أقصى حد تجاه السلطة الكاثوليكية ومذهب لوثر. ما يستحق أن نؤكد عليه في بروز العقلانية الممارِسة للنقد الذاتي، هو الأهمية المجهولة لمذهب المعتنقين الجدد للمسيحية marranisme، فهؤلاء كانوا في الواقع وبشكل أساسي من أصل يهودي، والكثير من المسلمين عادوا إلى المغرب العربي بعد غزو غرناطة. ومن بين اليهود الذين اعتنقوا المسيحية، بقي البعض منهم في اسبانيا، واستقر البعض الآخر في الأراضي المنخفضة. يوجد نوعان من المعتنقين الجدد للمسيحية: النوع الأول يتكون من الذين نسوا أصلهم وتحولوا إلى مسيحيين. والنوع الثاني هم الذين احتفظوا سرا بالإيمان والهوية اليهوديين. وينتمي إلى النوع الثاني الدكتور فرناندو كاردوزو Fernando Cardoso، من القرن السابع عشر، شاعر البلاط وصديق لكبار كتاب المسرح الدرامي، كاتب قصائد حول بركان فيزوف Vèsuve بالخصوص. وكان يبدو مندمجا اندماجا كاملا. فسافر إلى البندقية، وتوجه إلى سلطات الغيتو ليطلب منها الاعتراف به كيهودي. فوافقت السلطات على ذلك شريطة أن يصبح طبيبا للفقراء، وهو ما قبله. وكتب في البندقية كتابا سيطبع في هولندا تحت عنوان «حول تفوق اليهود» ليبرهن على أن شريعة موسى أعظم من شريعة المسيح.ولكن يوجد أيضا وجه ثالث لفكر المعتنقين الجدد للمسيحية ولد انطلاقا من هوية مزدوجة، من الإحساس بالانتماء لنمطين مختلفين من الوجود لجماعتين متنافرتين. إن صدمة الديانتين المتناقضتين تشبه لقاء جزيئتين تتصادمان فيما بينهما وتدمر إحداهما الأخرى لتشكيل مجموع جديد. هذه الحالات نادرة. ولكنها لافتة للنظر. فبارتولومي Bartolomé من لاس كازاس، مثلا، والذي تعود أصوله لكونفيرسو Converso، أقنع السلطة الكاثوليكية بقبول فكرة كون هنود أمريكا بشرا مثل الآخرين يملكون روحا. كانت الكنيسة ترفض قبول ذلك: فهل يمكن اعتبارهم بشرا بما أن المسيح لم يذهب أبدا إلى أمريكا الجنوبية ؟ إن الإضطهادات التي كان بارتوليمي شاهدا عليها جعلته يحس بالرحمة والعودة بالتالي إلى المصدر الذي هو بولس: «ليس هناك لا رجال ولا

نساء، لا أحرار ولا عبيد، لكنكم كُلٌّ واحدٌ في المسيح » (الرسالة إلى أهل غلاطية) . وللأسف فلقد ترك بارتولومي جانبا ولأسباب مصلحية مصير الأفارقة ضحايا النخاسة، فالنخاسة المرتبطة بالسود بدأت بالفعل منذ سنة 1502 في جزيرة هيسبونيولا Hisponiola . والحالة الأخرى التي من المناسب ذكرها هي حالة مُونْتِينْي Montaigne . يسود الإندهاش لما نسمعه يصف نفسه بالمعتنق الجديد للمسيحية، بما أن الجميع يعرفه كغسقوني، ولكن إحدى الصفتين لا تمنع الأخرى. نعلم من مصادر مؤكدة أن عائلته من جهة الأم ، آل لوب Loupe، تنحدر من عائلة لوبيز Lopez، والتي وجدت بعض آثارها في اسبانيا. يبدو غريبا أن هذا الرباط لم يتم، في فترة كان فيها الزواج مرتبا، بين شخصين منحدرين معا من المعتنقين الجدد للمسيحية، مع العلم أننا لا نعرف شيئا عن العائلة من جهة الأب. من المهم أن نسجل أن المراجع الأساسية في مؤلفه « دراسات » Essais هي يونانية ولاتينية، لاغيا تقريبا الإحالة على الأناجيل بل لاغيا الإحالة على أية نصوص دينية. وهناك رسالة غريبة جدا كتبها لوالده يحكي له فيها عن موت صديقه لابويسي La Boétie ، وقد أقيم له قداس حسب الطقوس الكاثوليكية. وفي نهاية الرسالة يقول لابويسي بصوت قوي: « أموت في قلب هذا الإيمان الذي غرسه موسى في مصر، والذي انتقل من هناك إلى يهودا Judée حيث أتى به أجدادنا إلينا » . طلبت من المتخصصين في لابويسي تفسير معنى ذلك فعجزوا عن إجابتي. إن المهم هو أن يكون هذا المعتنق الجديد للمسيحية، الذي هو مُونْتِينْيْ، نيزكا جويا في عصر الحروب الدينية. وهو كذلك بسبب نزعته الشكية ورفضه اعتبار الهنود الأمريكيين في مرتبة دنيا. لقد كتب ما يلي: « أولائك الذين يُنعتون بالبرابرة هم كائنات تنتمي لحضارة تختلف عن حضارتنا »، ويضيف: « لا أجد أمرا بربريا ومتوحشا في هذه الأمة...ما عدا أن كل فرد يَنْعَتُ بالبربرية ما لا يدخل في نطاق عاداته واستعمالاته » . تمثلت إحدى مظاهر البربرية الأوروبية في نعت الآخر المختلف بالبربري عوض الاحتفال بهذا الاختلاف وأخذه كفرصة للاغتناء والمعرفة والعلاقة بين

البشر. يمثل مُونْتِينْيْ هذا الفكر بحرية غريبة، عرف كيف يتحرر من الأفكار البربرية المسبقة لزمنه. أعتقد أن مصدر حريته يوجد في هذه الحرية الداخلية لذهن في استقلال عن اليهودية والمسيحية. فهو لا يعاني من التضاد بين يهودي ومسيحي، وَبَيْنَ مسلم ويهودي، وبَيْنَ مؤمن وكافر. يمكن بالطبع لأصول مُونْتِينْيْ المرتبطة بمعتنقي المسيحية الجدد أن تكون بعيدة جدا. إن ما تفتح بداخله هو بالأحرى فكر هؤلاء. على المستوى السياسي ظل حذرا جدا، دون أن يتخلى عن توجهه الأخلاقي التسامحي. فلقد ساند الملك في كل المجهودات المعتدلة التي بذلها من أجل تجنب حرب دينية.أرغب في إثارة حالة سبينوزا Spinoza أيضا. نجد أن فكرة الله الموجود خارج الطبيعة، خالق العالم، طردت من مؤلفاته. بينما كانت لا تزال حاضرة بقوة عند ديكارت أو نيوتن، في الوقت الذي لن تفرض فيه فكرة العالم الذي هو مصدر ذاته («سبب ذاته» يقول سبينوزا) إلا مع هيجل. فالقوة الخلاقة توجد في الطبيعة كما تشير إلى ذلك العبارة الشهيرة: «Deus sive natura». ما يمكن فهمه هنا هو أنه لا فرق بين الله والطبيعة. فالعقل عند سبينوزا هو السيد، لكن لا يتعلق الأمر بعقل جامد وإنما بعقل عمقه الرحمة و«عاشق» إذا جاز قول ذلك. يرفض فكرة الشعب المختار والتي اعتبرها فكرة غير راهنة ، فقام بعلمنة الهوية اليهودية، ومن خلال ذلك، وبعيدا عن المسيحية، أعاد الصلة بفكرة الكونية. نعثر إذن عنده على نفس استقلالية الفكر التي ميزت مُونْتِينْيْ. لقد عاش بالتأكيد في أمستردام المتسامحة آنذاك، ولكنه لم ينج من هجومات اللاتسامح. فبعدما طرد من الكنيس اليهودي، ونجى بأعجوبة من محاولة اغتيال، كان عليه أن يعيش في بؤس تام. لا يمكن أن ننفي أن محاكم التفتيش الإسبانية كانت على صواب عندما اعتبرت فكر معتنقي المسيحية الجدد مصدرا للنزعة الشكية والعقلانية. والحالات الدالة على ذلك عديدة في القرن السابع عشر. فدون كيشوت لسرفانتس، مثلا، تطبعه سخرية مزدوجة: نقد الخيال اعتمادا على الواقع، مجسدا في العين النقدية التي ينظر من خلالها سانشو بانسا إلى

دون كيشوت، ولكن أيضا نقد الواقع المبتذل عبر الخيال، منبع الشعر، وهو نقد يجسده الفارس التائه. يعلن دون كيشوت بذلك خيبة أمل العالم الحديث، وهو ما سيصفه ماكس فيبر بعد قرنين من الزمن. وبالرغم من أن سانشو ودونكيشوت لا يفترقان، فإنه لا وجود لتوفيق ممكن بين عالميهما، لهذا السبب يظل هذا العمل مدهشا، ويبزغ هو أيضا كنيزك جوي في عالم الثقافة والرواية. وهكذا إذن، تتطور النزعة الإنسية في التحام بالرسالة اليونانية وقد أعيدت لها الحياة في إيطاليا عبر النهضة، والتي تطورت في البلدان الغربية باستثناء اسبانيا. ولكن حتى انطلاقا من اسبانيا هذه، حيث تمت عرقلة الرسالة، برزت هذه الأخيرة من الأعماق، وانطلاقا من هؤلاء الذين يمكن نعتهم بوارثي فكر المسيحيين الجدد، الذين غذوا ورسخوا نزعة إنسية في عقل يتصف باللائكية والكونية. سيكون مفيدا أيضا إثارة ظاهرة ظهرت في الامبراطورية العثمانية، والمتعلقة بفكر ما بعد المسيحيين الجدد وهي الحركة المسيحية التي تزعمها صاباطاي تسيفي Sabbataï Tsevi. فبعدما قدم نفسه كمسيح جديد انتهى إلى اعتناق الإسلام. لكن أتباعه استمروا سريا في اعتناق عقيدة هذا المسيح اليهودي مع اعتناقهم للإسلام رسميا. وكانوا يسمون بالمرتدين. وكان لهم تأثير كبير في اسطنبول. وفي القرن التاسع عشر، أنشؤوا مدارس لائكية. وفي هذه المدارس تم تكوين الضباط الشباب الأتراك ومن بينهم مصطفى كمال نفسه، الذي سيؤسس اللائكية في العشرينات من القرن العشرين. تبين هذه المرحلة أيضا أن التواءات التاريخ محيرة للغاية، ولكنها بالخصوص تضع من جديد في الواجهة الفضيلة التحررية للعقل المسيحي الجديد. إن أنصار صاباطاي بتخليهم عن الشريعة اليهودية وتبنيهم للإسلام ظاهريا، تحرروا في نفس الوقت منهما معا. لهذا السبب، يمكن اعتبارهم منتمين للنزعة الإنسية الأروبية. إن النزعة الإنسية الأروبية بمكونها النقدي، تعبر عن نفسها بشكل جيد في الرسائل الفارسية لمونتسكيو Montesquieu، وسوف تستمر حتى كلود ليفي ستروس C.L.Strauss. يتخيل مونتسكيو فُرْساً يصلون إلى

الغرب ويعتبرون الفرنسيين كائنات مثيرة للغرابة والاستغراب، وهو ما يعتبر موقفا نموذجيا للعقلانية التي تقوم بنقدها الذاتي : أي أن يعتبر المرء نفسه كموضوع لحب الاطلاع والنقد، ويقدم فولتير Voltaire مثالا آخر في مؤلفه : « aux Welches Discours » . ولسوء الحظ، فالعقلانية الممارسة لنقدها الذاتي هي مظهر يظل ثانويا في التقليد الغربي . ففي القرن الثامن عشر، إبان عصر الأنوار، كانت العقلانية بالدرجة الأولى نقدية وانصبت أساسا على الديانات التي اعتبرت كأنسجة للقصص والخرافات. كان هذا النقد اختزاليا، لم ير ما سوف يبرز ماركس قِيمَتَهُ فيما بعد، أي كون الدين يشبه زفرة المخلوق التعس، الوسيلة التي يتم التعبير من خلالها عن الطموحات الإنسانية الأكثر عمقا. سيجد العقل الإنسي لعصر الأنوار التعبير عنه في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والمواطن، وهذه الرسالة حملتها الأرستقراطية المتنورة أكثر مما حملتها البرجوازية كما بين ذلك فرانسوا فوري Français Furet . فإبان ليلة الرابع من شهر غشت، تخلى الأرستقراطيون من تلقاء أنفسهم عن امتيازاتهم. ومع ذلك تفرع العقل، إبان هذه الحقبة التي تؤرخ لانتصاره، ليتخذ عدة وجوه. فالعقل العلمي بنى نظريات، لكن هذه النظريات التي تقوم في الظاهر على معطيات منسجمة، يمكن أن تلوث بـ « العقلنة » أي بتصور منطقي، والذي لا يحتفظ إلا بما يؤكده ويؤيده. فلابلاس Laplace مثلا حقن العقلانية في قلب العلمانية، واقترح تصورا حتميا بشكل تام عن الكون، في إطار معلمن جملة وتفصيلا بطبيعة الحال. فهو افترض أن شيطانا له سلطات عليا يستطيع ليس فقط معرفة جميع أحداث الماضي ولكن توقع جميع أحداث المستقبل. وحينما سأله نابليون « والله، ماذا تصنعون به؟ » أجابه لابلاس : « لست بحاجة لهذه الفرضية » . كان تصور لابلاس عقلنة قصوى للعقلانية النيوتونية. نعي اليوم أنه لا يمكن اختزال كل شيء في الطبيعة للحتمية. توجد إذن عقلانية تتجنب فخاخ العقلنة، عقلانية تمارس النقد الذاتي التي تجمع العقل والمعرفة وفحص الذات. لا تعود أمراض العقل إلى العقلانية ذاتها، ولكن إلى انحراف هذه

الأخيرة وتحولها إلى عقلنة وإلى تمتعها بما يشبه التأليه.إن إضفاء الطابع الأداتي على العقل، وجعله مثلا في خدمة غايات لاعقلانية كليا وبربرية مثل الحرب، يشارك في نوع آخر من العقلنة، في الواقع، ما تجب رؤيته بالخصوص وراء جميع صيغ العقلنة هو -إضافة إلى الفكر النقدي الممارس للنقد الذاتي- نسيان ما أسماه روسو Rousseau بالحساسية والذي هو نسيان طبيعتنا الخاصة. بالرغم من حضور الطبيعة في فكر روسو، فإن عصر الأنوار تجاهلها، ولكن هذا الواقع تغير بتمامه مع الرومانسية. أول نزعة رومانسية هي المتجسدة في إضفاء الشاعرية من جديد على الكون، والمستجيبة للإحساس بالاشتياق للجماعة وإضفاء الطابع المثالي على العصور الوسطى. لكن هذا الحنين للماضي سوف يتغير بعد عدة سنوات ليصبح طموحا للمستقبل المحرر، وهو ما يعبر عنه كل من هيجو Hugo ولامارتين Lamartine ، اللذان حققا ائتلافا ما بين العقل الرومانسي وعقل الأنوار. كان لامارتين أحد أبطال ثورة 1848، تلك التي أضافت كلمة «أخوة» إلى كلمتي شعار الثورة الفرنسية الشهير. بالنسبة لهيجو، تخيل بسبب ذهنه الحالم وبشكل استباقي الولايات المتحدة الأروبية، كتمهيد لاتحاد ولايات العالم. نفخت هذه الحقبة الحياة في حقوق الإنسان، حقوق الشعوب، حقوق الإنسانية، وبالخصوص تحت تأثير الفكر الاشتراكي.في القرن التاسع عشر، تحقق نوع من الاختمار مع فوريي Fourier، لورو Leroux، برودون Proudhon، الشباب الهيجلي، ستيرنر Stirner منظر الطوباوية، وأخيرا ماركس. أنجز هذا الأخير تركيبا فلسفيا وثقافيا رائعا لصالح التفتح والازدهار الإنساني الذي يحمل في ذاته الاشتراكية التي هي طموح كوني لمزيد من الحرية والمساواة. لكن فكره يمكن أن يعتبر أيضا وريثا لفكر المسيحيين الجدد. فما يوجد في قلب تصوره هو بالفعل نزعة خلاصية يهودية مسيحية معلمنة : فالبروليتاريا الصناعية تحولت إلى مخلص، وأصبحت الثورة رؤيا مستقبلية، وصار المجتمع بدون طبقات هو الخلاص الأرضي. اعتقد أغلب الماركسيين أنهم يمارسون العقلانية التامة دون

أن يدركوا أنهم يمارسون دين خلاص أرضي. يوجد النزوع نحو كونية الإنسية الأروبية في صلب هذا الأمل الاشتراكي، بفضل إنشاء الأمميات بالرغم من أن تنظيمها لازال مقتصرا على البلدان الأروبية المسيطرة والولايات المتحدة الأمريكية. إلى جانب هذا، فإن معظم الغربيين يعتقدون أن العقلانية هي امتياز يخصهم وأمر يستأثرون به. نصل بذلك إلى فكرتين معقدتين وهما : أولا، أروبا الغربية التي هي مقر أهم سيطرة لا مثيل لها في العالم، هي أيضا مقر الأفكار التحررية التي ستقوض هذه السيطرة. هذه الأفكار التحررية حملها الذين يستلهمون النزعة الإنسية الأروبية الحديثة : المثقفون، المناضلون، وبشكل أوسع رجال ونساء ذوو إرادة حسنة ينتمون لمختلف الطبقات الاجتماعية. ولقد اتُخذت المبادرة من طرف أذهان حملت أفكارا ثورية مثل فيكتور شولشر والذي -يجب أن نتذكر ذلك- قرر سنة 1848 إلغاء الرق في المستعمرات الفرنسية. هذه الأفكار لن تُبَث فقط في المستعمرات عبر تعليم الثقافة الفرنسية، ولكن ستُتَبنى من طرف الناطقين باسم البلدان المستعمرة، وهم الذين سيفرضون على الغرب العودة لمبادئه الخاصة : الحرية، حقوق الشعوب إلخ...كانت هذه الأفكار خميرة التحرر من الاستعمار. إذن في أروبا مقر السيطرة والغزو، تشكل الترياق، أي المضاد الواقي، الذي هو الأفكار التحررية. أما الفكرة الثانية الأساسية فتتعلق بالسيرورة التي أسميها «العهد الكوني». مع غزو الأمريكتين، والطواف البحري للملاحين البرتغاليين والاسبان حول الكرة الأرضية، دخل الكوكب في منظومة بين-تواصلية سوف تتطور بدون توقف. إذا كانت هذه السيرورة لا تنفصل عن الاستعباد والرق، فإن بذور القضاء على الاستعمار والتخلص من الاستعباد هي قائمة هنا منذ البداية. وإلى جانب عولمة تجارة المهربين والتجار، تطورت عولمة الأفكار التحررية والتي قادت إلى إلغاء الرق. بالتأكيد، كانت العولمة الثانية جد متأخرة عن الأولى وتمت بصعوبة. في الولايات المتحدة، تسببت الأفكار التحررية أيضا في قيام حرب الانفصال، وانتهت الحركة العالمية التحررية بالعمل على قيام حركة عالمية لتحرير

المستعمرات عقب الحرب العالمية الثانية. إن رحيل المستعمرين تم أحيانا بطريقة سلمية كما هو الشأن بالنسبة لتونس والمغرب، وتم أحيانا بطريقة مأساوية كما حدث في الجزائر. هذه السيرورة بلغت أوجها مع وصول مانديلا Mandela للحكم، وهو وريث للفكر الماركسي. لقد أراد وضع حد لفصل السود عن البيض، وأراد بناء أمة واحدة للجميع. وهكذا اتبع منطقا مختلفا جدا عن المنطق الذي جسدته حركات المد القومية الفاقدة لكل نزعة إنسية في أروبا الشرقية، هذه الحركات التي قادت إلى الحرب في يوغوسلافيا وإلى تدمير ما تم توحيده.لقد تمكنا في أغلب الأحيان من ملاحظة سيرورة التخلص من الاستعمار في مرحلتين. هناك تحرر أولي لا يعتبر من عمل المستعمَرين، وإنما نتيجة لعمل المستعمِرين الذين استقروا في هذه البلدان، أي نخبة من أصل أروبي عملت على إيصال هذه البلدان إلى الاستقلال كما هو الحال في الأرجنتين أو البرازيل. ولنسجل أن البرازيل، بالرغم من تحقق الاستقلال، استمرت فيه وضعية الرق حتى نهاية القرن التاسع عشر. ولنسجل أيضا أنه تطور في أمريكا اللاتينية تصور للأمة أوسع من تصور الأمم الكبرى الأروبية والذي اغتنى من امتزاج واختلاط الأعراق. في البرازيل والإيكواتور والمكسيك وكولومبيا، نجد الامتزاج والاختلاط بين الأعراق متعددا. بالتأكيد، فهذه الامتزاجات تنجز بشكل أقل في البلدان التي تحتكر فيها الطوائف ذات الأصل الأبيض السلطة وتقصي منها غالبية الشعب الأصلي. وهو ما يطرح مشكلا أكثر فأكثر حدة.لفهم العولمة، يجب أخذ بعين الاعتبار السيرورة الجدلية التي أنتجتها. فلقد تحققت عولمة أولى تحت هيمنة قوة عظمى هي اسبانيا في عصرها الذهبي والولايات المتحدة اليوم. وأنتجت عولمة أخرى يمكن أن تبدو محتلة للموقع الثاني، ومحرومة من قوة الأولى، ولكنها تحمل الآمال التحررية للبشرية. ما الذي حدث بعد سنة 1989؟ لقد تسببت عولمة السوق في انهيار النظام السوفييتي واقتصاده المبقرط، وكذلك تخلي الصين والفيتنام وجميع البلدان الشيوعية عن هذا النمط من الاقتصاد، حتى في الحالة التي يستمر فيها وجود

ديكتاتورية الحزب الشيوعي. وسيكون فقدان أفكار الاشتراكية الواقعية لقيمتها وصلاحيتها وفقدان فضائل الاقتصاد الاشتراكي لصالح ما يسمى بالليبرالية الجديدة لعدة سنوات. والفكرة التي فرضت نفسها هي أن الضبط الذاتي الاقتصادي التلقائي كاف لحل جميع المشاكل بما فيها المشاكل التربوية، بينما ظلت الليبرالية الكلاسيكية في إطار الضبط الممارس من طرف الدول. لازلنا لحد الآن في هذه المرحلة المتميزة بغياب أي ضبط حقيقي على المستوى العالمي، ومع ذلك فإن عولمة السوق تنتج عولمة موازية يسمح بها التقدم الهائل لتقنيات التواصل. نحن، و منذ الآن، في عصر التواجد في كل مكان بفضل الفاكس والبريد الالكتروني والهاتف المحمول. هذه الشروط التقنية والاقتصادية الجديدة تدشن عصرا جديدا تتمكن فيه الأفكار من التداول بسرعة الضوء. لقد سبق لانهيار الاتحاد السوفييتي أن سمح بانتشار الأفكار الديمقراطية، ليس فقط في الدول أيضا في أمريكا اللاتينية وفي افريقيا. إنها مرحلة سقوط أغلبية الديكتاتوريات في أمريكا اللاتينية. إنه انتقام ثورة 1789 من ثورة 1917. وإبان عدة حقب، بدت ثورة 1789 كثورة صغيرة أولية، من طبيعة ثانوية، وبدا أن الثورة الحقيقية لم يكن بإمكانها التفتح والازدهار إلا مع ثورة 1917 والسيطرة على السلطة من طرف الحزب البلشفي. لكن في سوق القيم الراهنة، انهارت ثورة 1917، وأعيد الاعتبار لثورة 1789. نحن في وضعية حيث العولمة الثانية تتطور بوتيرة مختلفة بالتأكيد عن العولمة الأولى ولكنها تتطور رغم ذلك. تبين أن تنبؤ ماركس رائع جدا حينما نرصد مشكل الثقافة والأدب والفنون. كان ماركس يكره البرجوازية ومعجبا بها في نفس الوقت. كان يرى فيها الطبقة التي تُشغل بقساوة جزءا من الإنسانية من جهة، ولكن من جهة أخرى كانت تدمر العلاقات العبودية والاقطاعية العتيقة بخلق مجال لنشر أدب عالمي. واليوم، ما الذي يعنيه الأدب العالمي ؟ إنه الإطلاع على آداب جميع جهات العالم بفضل الوسائل الرائعة للتواصل والنشر التي أنتجتها الرأسمالية، ولكن أيضا خلق فنون من نوع جديد. إن الصناعة الثقافية رغم

ارتكازها على البحث عن الربح، تحتاج إلى الأصالة والإبداع. فالأفلام الهوليودية التي تنتج بوسائل شبه صناعية، أنتجت أعمالا رائعة مثل أعمال جون فورد John Ford، بينما كانت السينما السوفييتية أقل إبداعا. وللأسف فحاجات الإنتاج تسحق في غالب الأحيان حاجات الإبداع. ويعتبر أورسن ويلز Orson Welles مثالا على ذلك، وفي جميع الحالات لا يمكن اختزال العولمة الاقتصادية والتجارية إلى مجانسة بئيسة، إنها هي نفسها تنتج وتغتني في نفس الوقت من عولمة إنسانية دون أن تختلط بها. هذه الجدلية الخاصة بالعولمة تجد تعبيرا عنها -تعبيرا مفهوميا تقريبا- في الحركة من أجل عولمة بديلة والتي هي انبثاق لعولمة غير متمحورة حول القيم التجارية، كما أنها ليست «حركة مضادة للعولمة» والتي تحدثت عنها وسائل الإعلام بإسهاب. فمنذ سيتْل Seattle، سنة 1999، شاهدنا جوزي بوفي José Bové يعبر عن فكرة تتعلق بعولمة بديلة. ومع عبارة «ليس العالم سلعة» يتعلق الأمر بخلق عالم مغاير وليس فقط بإنقاذ خصوصيات البلدان المختلفة. حتى وإن كانت الحركة من أجل عولمة بديلة لازالت تبحث عن هويتها، ولا تستطيع صياغة تصورها الخاص، وأنها تعاني أحيانا من صراع الأجنحة والتيارات، فإنها حية فعلا. لقد ولدت مواطَنَة عالمية بمناسبة حرب البيافرا Biafra، هذا الإقليم النيجيري الذي كان يصارع من أجل استقلاله، فأُسست «جمعية أطباء بلا حدود» والتي كانت مهمتها هي علاج الناس كيفما كان عرقهم ودينهم. شكل ذلك خطوة رئيسية. ومنذ ذلك الحين، تضاعف عدد المنظمات الإنسانية من هذا القبيل، شاهدة بذلك على وجود وعي كوني جديد، في الوقت ذاته الذي انحط فيه الفكر الأممي، فكر الأممية الشيوعية والأممية الاشتراكية الديمقراطية. لقد اتُهمت هاتين الأمميتين من طرف الأمم، ففي فرنسا مثلا، أرادت الأممية الثانية -التي كانت جد قوية في 1914 بفضل الحزب الاشتراكي الفرنسي بقيادة جوريس- تحقيق السلام مثلها في ذلك مثل الحزب الألماني. لكن منذ بداية الاعتداءات، انضم معظم الاشتراكيين الفرنسيين للحلف المقدس ضد ألمانيا، وانضم

معظم الاشتراكيين الألمان إلى الحلف المقدس ضد فرنسا. ولم ينتج عن هذا التنويم المغناطيسي القومي إلا بعض الأذهان الحرة مثل رومان رولان Romain Rolland وبعض النقابيين. لقد التهمت حرب 1914 الأممية الثانية. أما بالنسبة للأممية الثالثة، الأممية الشيوعية، فلقد وضعت نفسها في خدمة الاتحاد السوفييتي، والذي تحول هو نفسه شيئا فشيئا إلى خدمة قوته الخاصة. لقد تفسخت الأفكار المثالية للاشتراكية لصالح النزعة الوطنية التي أصبحت من البقايا الضرورية لإنقاذ الاتحاد السوفييتي. لقد نعت ستالين الحرب العالمية الثانية بـ «الحرب الوطنية الكبرى». وتركت الأممية الثالثة نفسها تبتلع من طرف النزعة الوطنية للامبراطورية السوفييتية. وبكيفية ما، كانت كل هذه الأمميات قد أهملت واقع الأوطان والأمم. لقد اعتقدت أن الأمم لم تكن سوى أوهاما ايديولوجية، وأن الدولة الوطنية لم تكن سوى آلة طبقية مسيطرة، وقللت من أهمية عمق الأمة، بالرغم من أن أوتوباور Otto Bauer حاول منذ القرن التاسع عشر بناء نظرية للأمة ترتكز على فكرة جماعة المصير، كما أن ستالين نفسه، كان قد كُلف في شبابه من طرف لينين بتأليف كتاب حول الماركسية والمسألة القومية حيث حاول تقديم بعض أسس الأمة. لكن الماركسية كانت عمياء كما أن الثوريين أنفسهم الذين اعتقدوا أنه تم التخلص من كل شيء في الاتحاد السوفييتي، مهدوا الطريق بدون وعي للعودة القوية للنزعة القومية، ليس فقط فيما يخص التزعة القومية الروسية، ولكن فيما يتعلق بالنزعة القومية الأرمينية والأوزبيكية والليتوانية أيضا. لقد اعتقدوا أنهم اجتثوا الدين، فعاد بقوة مُجددّة، واعتقدوا أنهم تخلصوا نهائيا من الرأسمالية بتصفية البرجوازيين، فجاءت رأسمالية أسوأ من تلك التي كانت في عهد القيصر. يوضح هذا ما أسميته بـ «إيكولوجيا الفعل»، ففي السياسة خصوصا، يمكن أن تناقض الأفعالُ النيات، وتنتج عن ذلك نتائج تدمر النيات، فكل من تجاهل إيكولوجيا الفعل يُحكم عليه بالوقوع في الخطأ على الدوام. لم تستطع الأمميات إذن التحول إلى وعي كوني شاهدة بذلك على ضعف وعي المواطنة العالمية. كنت قد اقترحت فكرة

« الأرض–الوطن » مع العلم أن كلمة « وطن » تحتوي على ميثولوجيا جد غنية أمومية وأبوية في نفس الوقت حتى في قيمها المعنوية، يقول لنا تصور الوطن أنه يجب محبة هذه الأرض الأمومية التي خلقنا منها، وهذه السلطة الأبوية للدولة إذا كانت عادلة. لم تحظ هذه الفكرة بَعْد بِبُعد عالمي. لقد خلقت العولمة التقنية الاقتصادية إبان الألفية الأخيرة الوسائل التي قد تمكن من انبثاق هذا الوعي العالمي العاطفي والتأملي في نفس الآن. فقد أنتجت البنيات التحتية لمجتمع–عالم محتمل. لكي يوجد مجتمع، فلا بد بالفعل أن يوجد مجال ترابي ووسائل اتصال واقتصاد. والحالة هذه، هناك مجال ترابي عالمي يتوفر على وسائل اتصال لا تحصى وعلى اقتصاد معين، لا يجب أن نأسف على عولمة الاقتصاد. بل بالعكس، يجب أن نأسف على عدم ضبطها مؤسساتيا. يجب إذن توفر سلطة ضابطة وشرعية على المستوى العالمي، للأسف تعرفون حال ومآل الأمم المتحدة والقانون الدولي...ومن جهة أخرى، فإن السيرورة التقنية–الاقتصادية تعرقل هذا المجتمع مانعة إياه من أن ينبثق كمجتمع. وهكذا يتطور الحوار ما بين العولمة الاقتصادية والعولمة الإنسانية، ويعني هذا الحوار أن هناك تعارض ما بين العولمتين، وأن الواحدة رغم ذلك تغتني بالأخرى، بالمعنى الذي يستحيل فيه وجود إحداهما دون الأحرى. إن عصر العولمة هذا تحفه مخاطر كبرى. فكما هو الأمر دائما، تتجاور الحضارة والبربرية. نشهد عودة حدة الإثنيات القومية والدينية في عدد كبير من البلدان والمناطق. ويمكن لبعض الاندفاعات الهائجة أن تجعلنا نفكر أن حرب ديانات أو حرب ثقافات بل حرب حضارات مسألة ممكنة. ويبين هذا من جديد أن للعولمة خصائص متناقضة ومتباعدة. إننا نشاهد إضفاء للطابع الكوني على المجال التقني الاقتصادي وفي نفس الوقت نشاهد وجود مقاومات، بما في ذلك عودة الديانات والشعائر المفرطة في الخصوصية. بدأت فكرة تبزغ في الحقب الأخيرة من القرن العشرين، حتى وإن كان لها أصل قديم : وهي فكرة سفينة فضائية، هي الأرض، تبحر على متنها الإنسانية. هذه السفينة تسير اليوم بأربع

محركات : العلوم، التقنية، الاقتصاد والربح. وهذه المحركات ليست مراقبة. لا أتبنى فكرا ثنائيا، ولا أقول بأن العلم سيء، بل بالعكس، أقول إنه طور سلطات تدميرية لا مثيل لها ولا تقبل التحكم فيها. ينتج التطور التقني-الاقتصادي الراهن انحطاط الكائنات الحية والتي تؤدي هي نفسها إلى انحطاط الحضارة الإنسانية، وبتعبير آخر، تتجه هذه السفينة الفضائية نحو كوارث دون أن يتمكن أحد من التحكم فيها. يبين هذا كله تعارضات وتعقيدات هذه العولمة المزدوجة. ألا يمكن لأروبا أن تنتج ترياقا أي مضادات واقية تنبع من ثقافتها، انطلاقا من سياسة الحوار والانسجام، من سياسة للحضارة تنمي وتطور خصال الحياة دون الاقتصار على ماهو كمي وتضع حدا للسباق نحو الهيمنة ؟ ألا يمكنها أن تنهل من النزعة الإنسية العالمية التي كونتها في الماضي؟ ألا يمكنها أن تعيد خلق النزعة الإنسية من جديد ؟

III. التّفكِير في بربريَّة القرنِ العشْرين

ظهرت البذور الأولى للبربرية التاريخية، كما رأينا ذلك، منذ ستة آلاف سنة في صلب امبراطوريات الشرق الأوسط. واستمرت إلى اليوم وأنتجت الأشكال المختلفة لبربرية الغزو والاستعمار مثل بربرية تَامِيرْلانْ وجِينْجِسْ خَانْ. لكن هذا الغزو لا يشكل امبراطوريات دائمة. بينما ستكون للغزو الذي قامت به أروبا الغربية نتائج على المدى البعيد : فالاستعمار لم ينته إلا بعد الحرب العالمية الثانية، في الستينات، بل وبعد ذلك التاريخ في حالة البرتغال. وابتداء من نهاية القرن الخامس عشر، برزت بربرية مرتبطة بفكرة الأمة، وبالفعل لقد ولّدت الأمة الحديثة -بهوسها بالتطهير وبالنقاء والصفاء الديني ثم الإثني- شكلا خاصا من البربرية لم تكن موجودة في الامبراطورية الرومانية أو في الامبراطوريات القديمة في الشرق الأوسط أو الأقصى بدون شك. يمكن لمذهب التوحيد، الكاثوليكي على وجه الخصوص، أن يفسر جزئيا هذيان التطهير هذا، خصوصا بسبب طابعه الإقصائي وإلغائه للديانات الأخرى، لنسجل أن الحرب العالمية الثانية ستدفع هذه الأشكال من البربرية إلى أوجها. أردت خلال الفصل الثاني أن أسلط الضوء على ظاهرة تبدو كمفارقة : فإذا كانت أروبا الغربية هي مقر السبطرة البربرية في العالم، فإنها كانت أيضا مقر الأفكار التحررية، مثل أفكار

حقوق الإنسان والمواطنة، بفضل تطور النزعة الإنسية. ولقد تم تبني الأفكار التحررية من طرف ممثلي الشعوب المستعمرة والمستعبدة. وانطلاقا من حقوق الشعوب وحقوق الانسان وحقوق الأمم تمكنت سيرورة التحرر من التحقق. وأكدت ، في النهاية، على أن العولمة -هذه الظاهرة التي يعتبر تاريخ ميلادها الرمزي هو 1492- عبرت عن نفسها أساسا بالرق والعديد من الاستعبادات الأخرى. ولكني أضفت أن عولمة ثانية انطلقت في نفس الوقت تقريبا : عولمة حقوق الإنسانية وحقوق الأمم والديمقراطية. وأخيرا ها نحن اليوم في عولمة متناقضة: التقدم الرائع للعولمة التقنية-الاقتصادية تسبب في تكون العولمة المواطنة والإنسانية وخنقها أيضا.

وأصل الآن إلى مسألة بروز التوتاليتاريات، وهي ظاهرة أروبية حديثة أخرى. أحيانا يتم انتقاد الاستعمال الذي يخصص لهذه الكلمة، أي التوتاليتارية، بجعلها تدل على أنظمة متنوعة، مثل النظام الستاليني والهتلري. أعتقد أنه يجب تبني وجهة نظر معقدة تؤكد في نفس الوقت على الاختلافات والتعارضات وعلى التشابهات والتماثلات. كما لا يجب التسرع في تبرير توتاليتارية حمراء لتتم الإدانة الشديدة لتوتاليتارية داكنة. يمنعني نمط التفكير الذي يوجهني من امتلاك فكر أحادي الجانب ونظرة مثالية أو شيطانية، إدراكا مني بأنها أنتجت في نفس الآن الأفضل والأسوأ. وانطلاقا من نفس طريقة التفكير أرفض التمييز ما بين علم «جيد» وعلم «سيء» إلخ...لا أعتقد أبدا كما حاولت توضيح ذلك أن هناك عولمة «جيدة» وعولمة «سيئة».

علي أن أقول أولا أنه لم يوجد فكر للتوتاليتارية، كما وجد فكر للرأسمالية (ماركس)، وفكر للديمقراطية (مونتسكيو وتوكفيل)، وفكر للديكتاتورية. برزت الديكتاتورية مفاجئة جميع التوقعات، إنها ثمرة سيرورة تاريخية ناتجة عن خطأ هائل تمثل في الحرب العالمية الأولى. كانت هذه الحرب اندفاعا هائجا للبربرية القاتلة وفعلا انتحاريا لأروبا في نفس الوقت. لنبدأ بحالة الشيوعية السوفيتية بؤرة

التوتاليتارية الستالينية. تعتبر الماركسية في الأصل فكرا غنيا جدا ولايزال في غاية الراهنية، وبالخصوص فيما يتعلق بمشاكل العولمة. لكن ضعفها يكمن في أنها لم تتعرض حقيقة لمسألة السياسة. كان ماركس يتصور الدولة فقط كأداة للطبقة المسيطرة، أي كبنية في منطق الحرب والعلاقات بين الطبقات. لقد درس بعمق الصراعات الاجتماعية ولكنه لم يهتم بما هو سياسي على وجه الخصوص.

تفرع عن الفكر الماركسي تياران: تحول أحدهما وبسرعة إلى الاشتراكية الديمقراطية الألمانية انطلاقا من تأسيس الحزب الاشتراكي الديمقراطي في عهد أنجلز Engeles. وتطور هذا التيار في تعارض مع الأطروحة المدافعة عن ثورة عنيفة وقاسية، أطروحة «المساء الأكبر» حيث التمرد البروليتاري سيقوض الرأسمالية. ويفضل هذا التيار استراتيجية إصلاحية تدريجية كما جسدها بِرْنْشْتَيْنْ Bernstein. في بداية القرن العشرين حدثت قطيعة في الحَزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي بين تيار الأغلبية (البلشفية) وتيار الأقلية (المنشفية). بدأ الحزب البلشفي يتكون شيئا فشيئا في قلب روسيا القيصرية، وفي ظروف السرية والقمع البوليسي. كان الحزب عبارة عن منظمة مركزية شبه عسكرية تعتمد المراقبة الدقيقة لأعضائها بهدف تجنب اختراق عناصر الشرطة القيصرية «الأخرانا» Okhrana. تكمن خصوصيات البلشفية إذن في ظهورها في روسيا القيصرية. في سنة 1914، كان الأمر يتعلق بحزب صغير يوجد معظم قيادييه في المنفى. وفضلا عن ذلك، كانت الماركسية في هذه المرحلة قد فقدت الكثير من جاذبيتها في العالم الثقافي الروسي بسبب طابعها المحدود أو العُصْبَوِي في أوساط الانتلجنسيا الروسية شديدة التأثر بالتعقيدات الإنسانية. كان لرسالة تولستوي التي مَجَّدت الأُخُوّة الشاملة تأثيرا كبيرا.

رغب البلاشفة في تحقيق الثورة البرجوازية. واقتنعوا فعلا –وعلى رأسهم لينين– أن الثورة البرجوازية هي المرحلة التمهيدية التي ستسبق الثورة الاشتراكية. كان يجب أن تتطور الرأسمالية والبرجوازية والبروليتاريا حتى تتمكن هذه الأخيرة –

بعدما تتدعم عدديا ونفوذا– من قلب المجتمع البرجوازي. ولقد تسببت العديد من الهزائم الروسية في الحرب في حدوث الثورة الديمقراطية وهو ما أدى إلى قلب الحكم القيصري ووصول الاشتراكي الديمقراطي كرِينْسْكِي إلى السلطة. وأدرك كرينسكي أنه عاجز عن القيام بالحرب أو التفاوض حول السلم، وسيفاقم فشله من درجة إحباط الجنود ويسبب في اندلاع تظاهرة عمالية في بتروغراد –والتي كانت تسمى سابقا سانت بترسبورغ وسوف تسمى لاحقا لينينغراد– وسوف ينضم البلاشفة إلى هذه الحركة ويفرضون بمهارة كبرى هذا الشعار المزدوج : من جهة، «الأرض للفلاحين»، الشيء الذي سيؤجج غضب الموجيك المعبئين، ومن جهة أخرى، «كل السلطة للسوفييت»، أي للمجالس العمالية التس تشكلت في مصانع بيتروغراد.

ثم حدث فجأة حادث خطير الأهمية وهو: «أطروحات أبريل» للنين التي يؤكد فيها أنه يجب، في الأخير، إنجاز اقتصاد الثورة البرجوازية في روسيا. فبما أن روسيا هي الحلقة الأضعف في العالم الامبريالي والرأسمالي، فإن قيام ثورة في هذا البلد سيؤدي إلى اندلاع الثورة الاجتماعية في البلدان الصناعية الكبرى مثل أنجلترا وألمانيا وفرنسا. وجد لينين صعوبة كبرى في إقناع أصدقائه البلاشفة بصحة أطروحاته، لكنه في الأخير نجح في ذلك. وهكذا هيأ لانقلاب أكتوبر، سيطر السوفييت في بتروغراد بمساعدة الجنود المتمردين على قصور وبنايات السلطة. لقد تمت قيادة هذه الثورة من طرف البلاشفة إلى جانب كل من الفوضويين والاشتراكيين الثوريين الذين يشاطرونهم نفس التصور. تمت الدعوة لإجراء انتخابات لتشكيل جمعية تأسيسية وهي أول جمعية ديمقراطية في روسيا. صار البلاشفة أقلية، وهو ما دفع لينين إلى حل هذه الجمعية مباشرة.

اندلعت الحرب الأهلية، حاول الجيش الأبيض استرجاع بتروغراد، وسيتم التدخل الأجنبي منذ نهاية الحرب العالمية الأولى. في خضم هذه الظروف بدأت مبكرا سيرورة التعامل الراديكالي في أقصى مداه. فتم القضاء التام على الفوضويين

وعلى الاشتراكيين الثوريين أيضا، وتحول الحزب البلشفي إلى حزب وحيد يقود روسيا التي أصبحت الاتحاد السوفييتي. لكن الوضعية الاقتصادية كانت كارثية. فالمجاعة تهدد الناس في كل مكان، ولهذا قرر لينين تطبيق السياسة الاقتصادية الجديدة (النيب). وكان الأمر يتعلق بترك مكانة محددة لاقتصاد السوق وإعطاء حرية محدودة للفلاحين والمقاولين والتجار الصغار. وسمح ذلك ببداية إعادة بناء اقتصادي. ولكن النيب ستلغى من طرف ستالين سنة 1930.

وإبان سنوات 1920-1924، بعد الانتصار على الجيش الأبيض، والتخلي عن سياسة التدخل الخارجي، لم يشكل في الاتحاد السوفييتي مجتمع من نوع جديد، قائم على العلاقات الأخوية. لم تتكون سلطة حقيقية للبروليتاريا، ولكن ما حدث، وبسرعة هائلة، هو أن الحزب أصبح لا يراقب فقط الطبقة العاملة وإنما يقمعها أيضا. وتحت شعار ديكتاتورية البروليتاريا، مورست الديكتاتورية على البروليتاريا. في سنة 1921 انتفض بحارة قلعة كْرُونْشْطَاتْ Kronstadt مطالبين بتطبيق برنامج شعبي اشتراكي وديمقراطي حقيقي، فقام تروتسكي، قائد الجيش الأحمر، بتقتيلهم بدون شفقة ولا رحمة.

إن سبب فشل الثورة الروسية هو ثقافي بالأساس لأن الثقافة الاشتراكية آنذاك كانت منعدمة، ولم يكن هناك وجود ايضا لثورة عالمية. هذا النقص سمح بنجاح الستالينية. تخلت الستالينية بصفة تامة عن المنظور الثوري العالمي، ولم تعد تهتم إلا ببناء الاشتراكية في بلد واحد بواسطة التطور الصناعي. ويشبه فشل الفكرة الاشتراكية الأخوية والانسانية الفشل الروحي للمسيحية التي بتحولها إلى سلطة شوهت الرسالة الأصلية للمسيح. كان المسيح قد قال لأتباعه أنه سيعود وهو على قيد الحياة. وإبان ما يقرب القرن، عاش الأتباع وخلفهم مقتنعين أن نهاية الحياة قريبة، وأن «المساء الأكبر» على الأبواب. وحينما تجلى للعيان أنه لا وجود للمساء الأكبر قاموا ببناء كنيسة على أساس التراتبية، أي منظمة توتاليتارية بالقوة بمعنى من

المعاني. وهكذا، ففشل الرسالة المخلصة للمسيح أدى إلى انتصار الكنيسة الكاثوليكية. وبنفس الكيفية يمكن أن نقول أن الفشل الثقافي للاشتراكية في الاتحاد السوفييتي أدى إلى إقامة الاشتراكية الواقعية والتطور المذهل لقوتها تحت سياط ستالين.

فلأول مرة يقام نظام توتاليتاري. ماذا يعني ذلك ؟ يعني ذلك أولا أن جميع مكونات المجتمع المدني والسياسي والاقتصادي والثقافي والبيداغوجي إضافة إلى الشرطة والجيش والشبيبة هي مراقبة ومسيرة من طرف الحزب. فهذا الأخير تحول إلى مركز للعلم الكلي والقدرة الكلية في نفس الوقت. يفترض في الحزب وقادته امتلاك معرفة عليا بقوانين المجتمع والتاريخ، وهي معرفة خاصة بالماركسية اللينينية. ليست التوتاليتارية إذن المراقبة المتضخمة للدولة، بل هي إقامة حزب يمتلك سلطة هائلة ويراقب الدولة. لم تعد الدولة إلا أداة في يد الحزب الذي يراقب كل شيء. يمكن أن تعرف التوتاليتارية كتنظيم شامل انطلاقا من حزب وحيد. وكما أن نظاما تيوقراطيا يتأسس على فرعون-إله يعرف كل شيء ويقدر على فعل كل شيء، فإن التوتاليتارية ترتكز على نظام يفترض في قادته معرفة كل شيء، وامتلاك معرفة حقيقية وواضحة. وهكذا تتكون سلطة مطلقة على أساس هذه المعرفة التي تفرض نفسها كمعرفة حقيقية بصفة مطلقة.

من المهم أن نسجل عدم وجود أية حتمية تاريخية هنا. فلم يكن من الضروري أن تؤدي ثورة أكتوبر إلى إنتاج التوتاليتاريات الستالينية، كما أنه ليس من المفروض أن يقود «منطق» معين للماركسية نفسها أو للينينية إلى البربرية االتوتاليتارية. لم تكن التوتاليتارية متوقعة، لم يُرد لها أن تكون عن معرفة وقصد، كما يعتقد أولئك الذين يختزلون دائما التاريخ إلى سلسلة من المؤامرات. تسمح بعض العناصر في الماركسية بالانحراف نحو التوتاليتارية، بينما تقود عناصر أخرى فيها نحو اتجاهات أخرى. بل إن هذا الانحراف لم يكن موضوع تنظير من طرف لينين. وعلى العكس

من ذلك، يعلن لينين في كتابه «الدولة والثورة» أن نتائج الثورة ستكون هي إضعاف الدولة التدريجي نحو زوالها. تأسس النظام السوفييتي في الواقع على إثر سلسلة من الاضرابات التاريخية. وسيظل قائما جزئيا بسبب تخلف البيروقراطية القيصرية التي ورثها، وبسبب الحصار الرأسمالي الذي سيقوى توجهاته الانعزالية.

كان موسوليني في البداية اشتراكيا، وفي سنة 1919 أسس «أحزمة القتال» ولم تكن هذه الأحزمة في مستوى الحزب بعد، وإنما كانت في ظروف شديدة الاضطراب تجمعا لرابطات قدماء المحاربين والنقابيين. كان المكون القومي في قمة حدته وهيجانه بسبب خيبات الأمل التي سببتها المعاملة التي عوملت بها إيطاليا بعد الحرب والتي اعتبرت غير عادلة. كان لهذه المعاملة وقع الإهانة الحقيقية بما أن إيطاليا كانت ضمن صفوف المنتصرين. وصل موسوليني للحكم سنة 1922. وعلى إثر الزحف على روما أجبر الملك فيكتور-إيمانويل الثالث على تسليمه السلطة. وتم الحفاظ على النظام البرلماني حتى سنة 1925، لكن بعد اغتيال ماتيوتي من طرف الفاشيين، نظمت القوانين المتطرفة في فاشيتها الديكتاتورية اعتمادا على الحزب الوحيد. ومع ذلك ظلت هذه التوتاليتارية غير مكتملة، فقد استمر قطاع صغير يضم الملكية متواجدا، أي أن توافقا مع الكنيسة والاقتصاد الرأسمالي استمر في العمل. وما يجب تسجيله هنا بالخصوص هو المكون القومي. فالفاشية الإيطالية هي فاشية قومية، وهي أيضا مثلها مثل النازية فاشية اشتراكية. فهي ولدت بالتأكيد انطلاقا من الظروف الاقتصادية الفظيعة لما بعد الحرب، ولكنها ولدت أيضا وبالخصوص من المشاعر القومية المحبطة والهائجة.

انخرط هيتلر الذي هو من أصل نمساوي في الجيش البافاري إبان الحرب العالمية الأولى. وانضم لحزب صغير سنة 1925 هو «حزب العمال الاشتراكي الألماني». ونرى هنا أيضا أن الايديولوجية الاشتراكية والايديولوجية القومية مرتبطتان بقوة. وفي سنة 1924، بعد محاولة انقلابية فاشلة في ميونيخ، صاغ في السجن عقيدته في كتابه

« كفاحي » Mein Kampf. ويتضمن هذا النص بالفعل جوانب عنصرية وعرقية معادية للسامية بشكل أساسي كما يتضمن ضرورة غزو ألمانيا لمجالها الحيوي. وتمرد ضد حرمان ألمانيا من المستعمرات في افريقيا وغيرها من المناطق. وسيكون مجال ألمانيا الحيوي هو أروبا الشرقية. وبما أن النظرية العنصرية والعرقية تؤكد على تفوق الآريين الألمان ودونية السلافيين، فإن أوكرانيا هي التي عليها أن تهب نفسها للاستعمار الألمالي بكيفية ما. وسيظل « حزب العمال الاشتراكي الألماني » بدون أهمية تذكر حتى انتخابات 1930، والتي فاز فيها مائة وثلاثون نائبا نازيا بعضوية البرلمان. كيف يمكن تفسير ذلك ؟

إن الأزمة الاقتصادية العالمية الكبرى التي رأت النور سنة 1929 في وول ستريت بالولايات المتحدة الأمريكية أصابت ألمانيا بقوة غير معهودة. وكانت ألمانيا حينئذ البلد الأكثر تصنيعا في أروبا، فدفعت هذه الأزمة التي مست جميع قطاعات المجتمع إلى البطالة جزءا كبيرا من الطبقة العاملة. إضافة إلى ظروف البطالة هذه، والأزمة الاقتصادية أضيفت الإهانة القومية. فمعاهدة فرساي حرمت ألمانيا من أراضي لغة سكانها هي الألمانية، وحرمتها على وجه الخصوص من جزء كبير من بروسيا الشرقية التي تركت لبولونيا، وهو ما أدى إلى خلق ممر « دامتزيغ » Damtzig، ولكن ما اتضح خصوصا هو ضعف ديمقراطية « فيمار » Weimar. وسمح انشقاق الديمقراطيين لهتلر، ليس فقط بالحصول على الأغلبية المطلقة في البرلمان، وهو ما لم يستطع الحصول عليه أبدا، وإنما أيضا بزيادة قواته وتمثيليته. وحينما ترشح لرئاسة الجمهورية فشل في ذلك. فلقد تم انتخاب « هندنبورغ » Hindenburg، فتفاوض هتلر مع أحزاب اليمين لتشكيل أغلبية فنجحت الخدعة، فتم تعيينه كمستشار من طرف رئيس الجمهورية. وكل هذا تم في انشقاق كارثي. فأصبح عدو الحزب الشيوعي الرئيسي آنذاك هو الحزب الاشتراكي الديمقراطي وتخيل الشيوعيون أنه إذا وصل هتلر للسلطة، فإن عجزه عن حل المشاكل الاجتماعية والاقتصادية ستمكنهم حينها من

أن يصلوا للسلطة. في هذه الظروف، وفي هذا الإطار الشرعي، عين هتلر مستشارا للرايخ من طرف المارشال «هندنبورغ» في 30 يناير 1933.

أصدر مرسوما بسرعة فائقة يحل بموجبه الحزبين الشيوعي والاشتراكي. وابتداء من سنة 1933 أُنشأت الجستابو. واتخذ القرار بإقامة مخيمات اعتقال للمعارضين، وفي يونيو 1933، أي بعد فترة وجيزة من وصوله للسلطة أعلن وجود حزب وحيد هو الحزب النازي. وَضَمِنَ له التنظيمان العسكريان، «مجموعة الحماية» SS، و«فصائل الهجوم» SA، نفوذا مرعبا. وسمح له ذلك بالقيام بتطهير عنيف ضمن معارضيه السياسيين وسمح له ذلك أيضا بإعلان الاجراءات الأولى المعادية لليهود وممارسة أولى للاضطهادات. ففر عدد من اليهود من ألمانيا، لم يكن هتلر يبحث بعد عن منعهم من الفرار، فالأمر يتعلق إلى حدود تلك اللحظة بعزلهم وتهميشهم.

كانت معارضة هتلر قوية جدا حينما أخذ السلطة في ألمانيا التي عرفت الديمقراطية في عهد فيمار، ولكن خلافا لتوقعات السياسيين، جلب له النجاح الاقتصادي شعبية كبيرة، فحتى قبل حدوث الازدهار المفاجئ للصناعة الحربية، نجح الدكتور "شاشت" Schacht، وزير هتلر في الاقتصاد من سنة 1934 إلى سنة 1937، بحصوله على مداخيل غير تقليدية، من تحقيق إقلاع صناعي والقضاء على البطالة. في غالب الأحيان يُنسى عامل النجاح الاقتصادي. فهو شكل مؤهلا كبيرا لنجاح الهتلرية. فكون الاقتصاد الألماني تمكن من العمل حتى النهاية، بما في ذلك في أصعب اللحظات العسكرية وبالرغم من القصف الهائل للحلفاء، يبرز بوضوح مدى أهمية العامل الصناعي والاقتصادي، لكن النازية دُعِّمت أيضا بسلسلة من النجاحات على المستوى السياسي. وشكلت عسكرة منطقة الرون Ruhn للمرة الثانية مرحلة حاسمة، لم يحرك الفرنسيون ساكنا حينما احتل الألمان من جديد هذه المنطقة. ويعتبر إلحاق النمسا والأنشلوس مثالا آخر. أما بخصوص إلحاق مرتفعات «السوديت» –التي كانت تعتبر معاقل تشيكوسلوفاكيا وكان أغلب سكانها من الألمان– فقد كان

ضربة كبيرة من طرف هتلر تعبر عن جرأته وصلافته في آن واحد. نجح في الحصول من الفرنسيين والإنجليز بواسطة اتفاقات ميونيخ التي تخرق علانية التزامات فرنسا وأنجلترا تجاه تشيكوسلوفاكيا على إلحاق مرتفعات السوديت بألمانيا. وهكذا اجتاح جيشه مباشرة تشيكوسلوفاكيا ضاما 30000 كلم2 إلى ألمانيا.

إن العنصر الأكثر حسما بالنسبة لبلد مثل فرنسا له تقليد سلمي يساري عريق ومتأثر بتجربة الحرب العالمية الأولى، هو الإرادة السلمية. وأمام هذا الغزو الهتلري، انقسم مخيم السلام انقساما عميقا: فهتلر، بالنسبة للبعض يحقق حق الشعوب في تقرير مصيرها، وهو بالنسبة للبعض الآخر سببُ وضعية مقلقة جدا بفعل العسكرة والشهية في إلحاق أراضي الآخرين بألمانيا.

تعتبر النازية منتوجا كارثيا للبربرية الأروبية، ووجدت مصدرها في الأمة الأروبية الأكثر ثقافة. إذن، لم يتمكن الشعراء الكبار مثل غوته Goethe، والموسيقيين الكبار مثل «بيتهوفن»، والتقاليد الديمقراطية الموجودة قبل الحرب العالمية الأولى من احتواء البربرية. هذا الحدث أدهش الأذهان في غالب الأحيان، لكن لا يجدر التوقف كثيرا عنده. على الأقل، ليس بالشكل الذي ينسينا أنه إذا ولدت الستالينية والفاشية والنازية من رحم الحضارة، بما في ذلك من إنتاجاتها السامية، فإنها لم تتولد إلا عن الظروف التاريخية المحددة. إنها بالأساس نتائج للحرب العالمية الأولى. فلو توفرت ظروف أخرى، وربما مع بعض الصدف السعيدة، فإن نفس البذور الحضارية كان بإمكانها تجنب التوتاليتارية. فبدون الحرب العالمية الثانية، لا وجود للشيوعية ولا للفاشية ولا للنازية. وبدون أزمة 1929 لا وجود للنجاح السياسي النازي سنة 1933. إن الحرب والأزمة هما اللذان حملا هتلر إلى السلطة. فالنازية هي منتوج متأخر للحرب العالمية الأولى مثلما الشيوعية هي منتوج مباشر لها. وهما معا سيشاركان في قيام الحرب العالمية الثانية. فلما رأى ستالين أن الغربيين يستسلمون بالفعل أمام هتلر في ميونيخ، وخشي من أن يتفقوا في الأخير على إطلاق يدي هتلر، استبق الأحداث

وأمضى الاتفاق الألماني السوفييتي بواسطة ربنتروب Ribbentrop، ويقضي هذا الاتفاق بأن ألمانيا ستهاجم بولونيا، لكنه يتضمن أيضا مجموعة من البنود مثل احتلال جزء من بولونيا من طرف الاتحاد السوفييتي والتحكم في البلدان البلطيقية، أي ليتوانيا، وإستونيا، وليتونيا. وبفضل هذا التفاهم أطلق العنان لهتلر في الشرق وأصبح بإمكانه القيام بحرب خاطفة ضد بولونيا. ثم أتت حملة فرنسا وتفكك الجيش الفرنسي. إن الاتفاق بين التوتاليتاريتين هو الذي تسبب في اندلاع الحرب العالمية الثانية.

لنتطرق الآن للمسألة الشهيرة المتعلقة بالتقييم المتبادل للتوتاليتاريتين الهتلرية والستالينية. يمكن أن نلاحظ مسبقا الاختلاف البديهي في الأسس الايديولوجية للنظامين. فالايديولوجية الشيوعية أممية كونية تنشد المساواة، أما الايديولوجية النازية فهي عنصرية، وأوراقها كشفت منذ « كفاحي »، في الوقت الذي تمكنت فيه الايديولوجية الأخوية للشيوعية الموضحة في البيان الشيوعي لماركس الذي يعد بمثابة إنجيل ولمدة طويلة من إخفاء جرائم التوتاليتارية السوفييتية. كان الملايين من الناس مقتنعين بأن السوفييت أحرار وسعداء. وهناك عنصر آخر بخصوص هذه المقارنة ويتمثل في النزعة القومية، وهنا أيضا مال الكثيرون لاعتبار هذه المسألة علامة اختلاف في درجة « البربرية » حيث تم الاعقاد أن درجة هذه الأخيرة أقل في النظام الستاليني. صحيح أن النزعة القومية هي أصل النازية، بينما أساس الثورة السوفييتية هو الأممية. قامت النزعة المعادية لليهود بدور مهم في تشكيل النزعة القومية النازية. فهي استعملت بمعنى من المعاني كإسمنت لهذا الشعور القومي، وفق منطق كبش الفداء كما وصفه روني جيرار. لم تكن الأممية غائبة مع ذلك في النازية. ففي نهاية الحرب، وجدت نزعة أوروبية لدى عناصر « مجموعة الحماية » SS، حيث كان من بينهم النرويجيين والفرنسيين...اقتسموا أسطورة أوروبا القومية الاشتراكية، ولكن بالارتكاز دوما على عنصرية الإقصاء حيث الأساس هو إلغاء

والقضاء على العناصر المختلفة.

وبما أنه لم يكن للتوتاليتارية السوفييتية في الأصل مرتكز قومي، فإن معاداة اليهود كانت في البداية منعدمة، وكان في الحزب البلشفي عدد مهم من اليهود ابتداء بتروتسكي. وفضلا عن ذلك ستمنع عملية التحرير –مع انفظاعة المكتشفة في مخيمات الإبادة– ظواهر الإقصاء من التعبير عن نفسها. ولكن سيتم تدريجيا تهميش اليهود داخل الكمنترن (بل إن ستالين كان يخطط بعد اكتشاف المحاولة الانقلابية المزعومة لـ «البذلات البيضاء» لنفيهم إلى سيبيريا)، وإبان الحرب الباردة لم تعد معاداة اليهود ولا إدانة «النزعة العالمية اليهودية» أمرا مكتوما. نلاحظ إذن على الأقل في مستوى بربرية اللاتسامح وإقصاء الآخر، أن النظامين ينتهيان، رغم اختلاف مصدريهما، إلى التلاقي. سأتطرق في الصفحات الموالية للبربرية التصفوية، ولكن يمكن أن أقول مسبقا إن الأمور في هذا المستوى قابلة للمقارنة أيضا.

يجب أن نتناول الآن مسألة العنصرية النازية محاولين فهمها. إن الجمع ما بين النزعة القومية والعنصرية ليس بطبيعة الحال اختراعا نازيا. فهناك بذور عنصرية في النزعات القومية الحماسية أو المتأججة. فحتى في الغزو المضاد الذي قامت به اسبانيا نجد –كما حاولت توضيح ذلك– موضوعة صفاء الدم وطهره. لكن لكي نتمكن من الحديث فعلا عن عنصرية، يجب أن يظهر تصور عنصري على أساس العرق يكتسي شرعية ويتمتع بمصادقة عليه من طرف الانتروبولوجية العلمية. لكن ما حدث هو أن العلم الانتروبولجي، دون أن يكون نازيا، دافع ولمدة طويلة على أن الأعراق متمايزة نوعيا، مؤكدا على تفوق بعضها. أتذكر أنه في كتب الجغرافية المدرسية، إبان طفولتي، تم تعريف العرق الأبيض بخصال سامية بينما قدم السود باعتبارهم كسالى ولامبالين، وقدم الصفر باعتبارهم حاذقين ودهاة. ويثير الانسان الأبيض، كما امتدحه كيبلنغ، هذه العنصرية الضمنية.

طور نوع من الأنتروبولوجيا، مثل الذي يمثله جورج فاشي دو لابوج (1854–

1936) موضوع تفوق «العرق الآري» وذلك منذ القرن التاسع عشر. ونعرف أن غوبينو دافع أيضا عن هذا التفوق، وأثر عن طريق فاغنر Wagner في هتلر. وزعم شامبرلان الذي كتب سنة 1899 «أسس القرن التاسع عشر» البرهنة العلمية على التفوق العرقي للآريين. وصاغ نظرية لم تكن لحدود ذلك الوقت تراتبية بصفة ممنهجة. لكنه مع ذلك هو الذي أدخل معيار صفاء وطهر الدم في تعريف «العرق الآري» معتبرا اليهودي كنتيجة لدم مختلط، أي يتميز بالدونية بيولوجيا. وسوف تتجه الأمور شيئا فشيئا اتجاها خطيرا، حيث سوف تحل النزعة المعادية للسامية (عرقيا) محل النزعة المعادية لليهود (دينيا). وهكذا أمكن للنزعة المعادية لليهود أن تكون عنيفة وبربرية ملهمة ذبح اليهود والتصفيات فوق المحرقة. ولكن بما أن هذه النزعة كانت تفضل البعد الديني، فإن اليهود الذين اعتنقوا المسيحية بإخلاص تم العفو عنهم. أما النزعة المعادية للسامية فهي موقف أساسه إقصاء اليهودي باعتباره آخر مختلفا اختلافا جذريا.

تحارب النزعة المعادية للسامية الانحراف الجذري والعرقي المفترض وجوده لدى اليهود. هذا العرق الفاسد متهم بحمله لفيروس يوشك أن يفكك الماهيات القومية. نرى إذن كيف أن النزعة المعادية للسامية اشتغلت كوسيلة هاذية تهدف إلى إنقاذ الماهيات القومية من خطر الانحلال والفساد. في هذه السيرورة، لعبت الأفكار العرقية، بالتأكيد، دورا هاما، كما أشرت إلى ذلك قبل قليل. ولكن لا يجب أن ننسى تأثير العوامل التاريخية والاقتصادية، والكارثة الانسانية التي خلفتها الحرب العالمية الأولى. سيكون أمرا سهلا جدا لو كان بإمكان البربرية أن توجد فقط في الأفكار.

لقد وجدت، كما نعرف ذلك جيدا، نزعة فرنسية معادية للسامية انطلقت خصوصا وبشكل محموم بمناسبة قضية درايفوس Dreyfus. ويقدم كتاب إيدوارد درومون، "فرنسا اليهودية"، والذي نشر سنة 1886 اليهود كعملاء للشر اخترقوا المجتمع بأسره معرضينه للخطر. لم توقظ هذه القضية العناصر العفنة للبربرية فقط،

وإنما أيقظت أيضا تقليدا جمهوريا وإنسيا قويا سينتهي صراعه المستميت بالبرهنة على براءة درايفوس. لقد انتصرت فرنسا الدرايفوسية على فرنسا المعادية لدرايفوس. لكن انتقام المعادين لدرايفوس لن يعود فجأة للواجهة إلا في ظل حكومة فيشي Vichy . إن النزعة المعادية للسامية عرفت في فرنسا الجمهورية إذن حكما فاصلا أو بالأحرى جدالا مهما. ولم يكن هيجان المعادين للسامية أقل حدة. فقد ركزوا اهتمامهم على اليهودي المتحرر، والذي اعترف به مسبقا كمواطن تم دمجه من طرف الجميع. ففي نظرهم، قد يكون هو الأخطرلأنه يبدو كالآخرين رغم أنه ليس كذلك. فهو يمتلك «غرابة مقلقة». وكلما شابه اليهود الآخرين، أصبحوا تهديدا حاملا لكل ما يفكك الأمة : إنهم يهود-بلاشفة، يهود-رأسماليون، يهود-ماسونيون إلخ...

طور اليهود في مواجهتهم للهجمات المعادية للسامية، محاولين تجاهلها أو محاصرتها، ثلاث أنواع من ردود الفعل على الأقل. ويتمظهر النوع الأول عند أولائك الذي شعروا أنهم مندمجين، واعتبروا أنفسهم من فئة المواطنين، وشاركوا في الحياة القومية في الألزاس أو الميدي Midi. كان هؤلاء يعتبرون أنفسهم فرنسيين، بما أن فرنسا اعترفت بهم بصفتهم كذلك. لم تكن فرنسا فقط وطنا لآل غوبينو وآل لابونج وآل درومون، بل كانت أيضا وبالخصوص فرنسا الإدماج التي تدافع عن حقوق الانسان والمواطن والتي انتصرت على مضطهدي درايفوس. ولكنهم يعانون رغم كل شيء من ثنائية قطبية تجعلم يحسون، لاشعوريا في أغلب الأحيان، بالضيق الشديد للإطار القومي. ومن ثم النوع الثاني من ردود الفعل المتمثل في تجاوز البعض للإطار القومي عن وعي. لقد شعروا بتحفيز أساسه إرادة تجاوز حدود الأمة لأنهم كانوا مقتنعين بأنه ستوجد دوما في أي إطار قومي تيارات معادية لليهود تقصيهم، ومن جهة أخرى بسبب انحراف كوني. وستبدو لهم الأممية الحل الأنسب لتجنب مخاطر القومية. وستُغني الاشتراكيةُ الحلمَ بمجتمع آخر وعالم آخر . كان هذا هو حلم دون كيشوت. كان هناك من جهة قطب الإدماج القومي، ومن جهة أخرى الأممية. وتطور رد فعل

ثالث ببطء حول القطب الصهيوني. وجدت الصهيونية أصلها جزئيا في قضية درايفوس. فلقد حضر صحفي هنغاري، هو تيودور هرتزل Theodor Herzl، مراسيم تجريد الضابط درايفوس من رتبته العسكرية. واستخلص، متوترا وغاضبا من مناخ الكراهية المعادية للسامية، أن على اليهود أن يكفوا عن البحث عن الاندماج، والبحث عن خلق دولتهم القومية الخاصة بهم. وسوف يشيد الصهاينة سريعا مستعمرات في فلسطين. وسوف تكبر هذه الحركة وتتخطى المراحل نحو بناء دولة إسرائيل.

وفي غضون ذلك، ستتم إبادات الحرب العالمية الثانية في ألمانيا، والمفارقة هي أن العديد من اليهود الألمان اعتبروا أنفسهم وبقوة جزءا من الأمة الألمانية. وإبان زيارة لي إلى حيفا بإسرائيل، تمكنت من لقاء مهاجرين يهود ألمان في إحدى المستوطنات، وعلمت أن العديد منهم فيما يبدو بكوا عند إعلان هزيمة ألمانيا في ستالينغراد.

كيف يمكن الآن تفسير أو محاولة تفسير الاندفاع الهائج والنهائي للبربرية ؟ أي الإبادة بالمعنى الدقيق للكلمة ؟ فابتداء من سنة 1935، سنة نشر القوانين الأولى المعادية للسامية، انحصر الأمر في تجريد اليهود من ممتلكاتهم، وحرمانهم من المواطنة، ومنعهم من الزواج بـ «الآريين». وفي سنة 1941، أصبحت السيطرة النازية على أروبا تامة. فوقعت مجازر محلية، نفذتها «مجموعات الحماية» SS أحيانا، والجيش أحيانا أخرى. وبالموازاة مع ذلك، أنشأ النازيون الغيتوهات مثل التي وجدت في فارسوفيا أو كراكوفيا. كانت النازية تهدف إلى تطهير أروبا من جميع اليهود. وكان النفي المكثف لهؤلاء إلى مدغشقر أمرا مدروسا. ولهذا أجريت أبحاث في هذه الجزيرة للتأكد من أن مجالها الترابي لا يحتوي على ثروات باطنية. ويحيل هذا النفي المكثف على ما حدث للمورسكيين في القرن السابع عشر. أما المنعطف الذي قاد إلى الحل النهائي التصفوي فسيقع في نهاية سنة 1941 وبداية سنة 1942. ففي شتنبر

من سنة 1941 عجز الجيش الألماني عن الدخول إلى موسكو بسبب شتاء حل قبل أوانه وأعاقه عن التقدم.

وإبان ذلك، بعدما علم ستالين عبر جاسوسه ريشار سورج أن اليابانيين لن يهاجموا سبيريا، سحب قواته من الشرق الأقصى، ومنح قيادة جبهة موسكو للمقتدر والكفؤ جوكوف. وفي 6 دجنبر من سنة 1941 بدأ الهجوم السوفييتي المضاد والذي سيستمر من يناير إلى أبريل ليجبر القوات الألمانية على التراجع بـ350 كلم غربا. وكان ذلك أول تراجع عسكري عرفه هتلر. وفي 7 دجنبر هاجم اليابانيون بيرل هاربور Pearl Harbor فدخلت الولايات المتحدة الأمريكية الحرب. ولأول مرة تصور هتلر إمكانية الهزيمة. ويمكن تقديم تأويل مقبول أساسه افتراض أنه أراد أن يتجنب تحول الهزيمة النازية إلى نصر لليهود، فقرر تصفيتهم. تم إعداد «الحل النهائي» في 20 يناير من سنة 1942. ومنذ ربيع 1942، بدأت عمليات النفي والإبادات الجماعية لليهود. صحيح أن أوشفيتز Auschwitz كانت قد وُصفت قبليا بالقوة في «كفاحي» وأن العنصرية العرقية الهائجة للنازية كانت تحمل في طياتها الإبادة كوجود بالقوة. لكن كان يجب انتظار ذروة الحرب العالمية الثانية وشبح الهزيمة لكي تتحقق في الواقع بصفة ممنهجة. لا يجب أن ننسى أن الحقد العرقي العنصري وإرادة النازيين التصفوية لا تتركز فقط على اليهود. فإذا كان هؤلاء قد تعرضوا للإبادة بحجة الانحراف وعدم صفاء وطهر دمهم، فإن الغجر والرُّم Rom سيقتلون باعتبارهم «نفايات» تستحق القضاء عليها، والمعتوهين باعتبارهم غير جديرين بالانتماء للعرق الآري. وإذا كان السلافيون لم يصنفوا بوضوح في خانة من تجب إبادتهم، فإنهم رغم ذلك اعتبروا موضوعا للاحتلال والاستغلال.

نعرف أن عملية إبادة اليهود هذه، والمصير الذي أعد لهم بالخصوص في أوشفيتز، تم حجبه أو تجاهله إلى هذا الحد أو ذاك غداة الحرب في فرنسا. ويمكن أن يكون لهذا الأمر سببان. أولهما أنه كان في فرنسا 86000 منفي ومرحل سياسي

و75000 منفي ومرحل يهودي. أما في البلدان الأخرى فتم نفي وترحيل اليهود بنسبة 60 إلى 75%، وهو ما يشكل نسبة أعلى بشكل واضح. بل نجد في نهاية الحرب ببلغاريا عدد اليهود أكبر مما كان عليه في بدايتها. لماذا لم يصب اليهود من الأذى في هذين البلدين مثلما أصابهم في البلدان الأخرى ؟ لقد رفض الملك في بلغاريا وتحت تأثير الانتلجنسيا البرلمانية السماح لهتلر بنقل اليهود من بلده. وفي فرنسا، قادت القناعات الجمهورية والإنسانية الكثير من المواطنين إلى إخفاء اليهود، ومكنتهم المقاومة من أوراق مزورة. وأغلب اليهود الذين تم نقلهم من فرنسا لم يتمكنوا من العودة. حينما تم تأسيس «الفدرالية القومية للمرحلين الوطنيين المعادين إلى وطنهم» انتمى إليها المرحلون والمعتقلون والمقاومون. أما اليهود الذين اعتبروا كـ «وطنيين» فلم يتم إدراجهم باعتبارهم كذلك في هذه الفدرالية.

وإلى يومنا هذا، يتطور الاعتراف بإبادة اليهود الأروبيين بموازاة مع إثبات هؤلاء لهويتهم اليهودية وهو الأمر الذي ييسره ويشجعه وجود إسرائيل. إن إثارة الاستشهاد اليهودي الذي شهدته أوشفيتز تستعمل أكثر فأكثر بكيفية ما لحماية إسرائيل ضد أولائك الذين ينظرون إليها كمضطهِدة للفلسطينيين. وإبان تخليد ذكرى تحرير أوشفيتز بتاريخ 27 يناير 2005، شهدنا نوعا من العرض المفرط للاستشهاد اليهودي ضاربين عرض الحائط بالغجر والسلافيين والمقاومين وقد استرعى هذا العرض المفرط انتباه كل من أنيت فييفيوركا Annette Wieviorka وسيمون فايل. فأرنيت فييفيوركا تذكِّر في كتابها «أوشفيتز بعد ستين سنة» بمكونات مخيم الضحايا : المعتقلون السياسيون، المجرمون، الشواذ الجنسيون، شهود جيهوفا، معتقلو الحرب السوفييت واليهود. وتتطرق أيضا للصعوبات التي تعترض استعمال صفة «جريمة ضد الغجر».

ونتج عن تخليد هذه الذكرى المقتصر حصريا على الاستشهاد اليهودي مطالبة سود المارتنيك وافريقيا السوداء بالاعتراف بالبربرية المتمثلة في نظام الرق. وفيما يخص الجزائر حصل اعتراف متأخر بمجزرة صطيف. فلقد نفذت في هذا البلد إبان

الحرب مجازر على يد هذا الطرف أو ذاك. لكن فرنسا هي التي كانت تحتجز الجزائر تحت وصاية الاستعمار، ومن ثمة أيضا مصدر المطالبة بهذا الاعتراف الذي هو الجزائر.

يمكننا أن نقول إذن إن ما يحضر في الوعي عبر ذكرى ضحايا النازية، وعبر استرقاق الساكنة الافريقية التي تعرضت للترحيل والنفي، وعبر الاضطهاد الاستعماري هو بربرية أروبا الغربية التي تمظهرت في استرقاق واستعباد الشعوب المستعمرة. ولا تعتبر النازية إلا المرحلة القصوى من هذه العملية. هذه النازية التي حاربت الأعراق التي وصفتها بالدونية : فالسلافيون من مرتبة أسفل وأدنى، والغجر ملوثون، أما اليهود فيتصفون بالتلوث والدونية والانحراف في نفس الوقت. لكن لا يجب أن نفصل الشهداء اليهود عن شهداء البربرية.

أريد أن أؤكد في الختام على أنه يجب تجنب الانغلاق داخل فكر ثنائي، أي فكر مُلبّد بقطب اهتمام واحد على حساب الأقطاب الأخرى. فإذا ركزنا كثيرا على أوشفيتز فقط فإننا نخاطر بالتقليل من أهمية الغولاغ (مخيمات الاعتقال والإبادة السوفييتية) ونغض الطرف عن بربريات أخرى. وحتى وإن حصرنا اهتمامنا في الجانب الكمي، فإن عدد الموتى الذين تسبب النظام الاعتقالي السوفييتي كان هو الأكثر أهمية. فالغولاغ استمر مدة أطول من مدة التصفية النازية التي بدأت سنة 1942 وانتهت في بداية 1945. وفضلا عن ذلك فهذه الأخيرة انتهت في مجزرة، لمت أشلاؤها بشكل مأساوي في بضعة أيام: الناجون من الموت. فالحمى الصفراء، والمسيرات الطويلة المرهقة بقيادة «مجموعات الحماية» SS للفرار من تقدم الحلفاء كانت قاتلة بشكل مرعب. وحينما بلغ الحلفاء أبواب داهو شاهدوا أكواما من الجثث. وساد الانطباع آنذاك أن فظاعة النازية تنحصر في نتيجة أكوام الأجساد هذه. لكن في الواقع يعود ذلك لكون آلة الإبادة والتصفية توقفت للتو عن اشتغالها. فالأفران توقفت، والجثث تكدست. لكن الفظاعة لا تكمن أساسا في تكدس الجثث بقدر ما

تتجسد في اشتغال آلة الموت المتقنة. لا يجب أن تتمكن صورة، مهما كانت ناطقة ومرعبة، من أن تخفي عنا الواقع. وهذا ما يحدث إلى حد ما. فالإبادة الجماعية لليهود تبدو لنا أكثر فظاعة من التصفية الجماعية الضخمة التي تمثلت في الغولاغ، والذي لا نملك عنه أية صور، وتم حجبه لمدة طويلة. يقودنا كل هذا للقول أن المبل لتجاهل الغولاغ لصالح أوشفيتز، أو العكس بطبيعة الحال، لا معنى له بشكل بديهي. فلنحذر إذن من البربرية الذهنية والتي تجعل من النازية الفظاعة القصوى والمطلقة، وبالتالي التقليل من شأن جرائم الستالينية عن وعي أو عن غير وعي.

إن ما يجب أن تؤدي إليه التجارب المأساوية للقرن العشرين هو المطالبة بإنسية جديدة تتمثل في التعرف على البربرية كما هي، بدون تبسيط أو تشويه من أي نوع. وليس المهم هو الندم وإنما الاعتراف. كما يجب أن تتوسط هذا الاعتراف المعرفة والوعي، من اللازم أن نعرف ما حدث بالفعل. وأن نتملك الوعي بتعقيد هذه المأساة الضخمة. وأن يشمل ويهم هذا الاعتراف جميع الضحايا : اليهود، السود، الغجر، الشواذ الجنسيون، الأرمن، مستعمرو الجزائر أو مدغشقر. وهو أمر ضروري إذا أردنا تجاوز البربرية الأروبية.

يجب أن نمتلك القدرة على التفكير في البربرية الأروبية لتجاوزها، لأن الأسوأ ممكن دوما. ففي قلب صحراء البربرية المهددة لنا، لا نتواجد لحد هذه اللحظة إلا في واحة صغيرة نحتمي بها، ولكننا نعرف أيضا أننا نوجد في ظروف تاريخية-سياسية-اجتماعية تجعل من الأسوأ أمرا قابلا للتحقق، وخصوصا إبان المراحل التي يبلغ فيها التأزم حد الانفجار.

تهددنا البربرية من وراء الستراتيجيات التي ينتظر أن تعارضها. وأفضل مثال هو هيروشيما. لقد تحدثت كثيرا عن أوشفيتز وعن الغولاغ، ولكن لا يجب أن ننسى هيروشيما. فالفكرة التي تؤدي لهذه البربرية الجديدة هي المنطق الجلي الذي يضع في الميزان المائتي ألف قتيل بسبب القنبلة، والمليونين -بما فيهم خمسمائة ألف

جندي أمريكي- الذين كانوا سيقدمون كثمن لو استمرت الحرب بوسائل تقليدية، إذا انطلقنا على الأقل من تقدير استقرائي للخسائر المكبدة في احتلال «أوكيناوا» وحدها. يجب القول أن هذه الأرقام تم تضخيمها عن قصد، ولكن لا يجب أن نخشى على وجه الخصوص من التركيز على عامل حاسم كان هو المحدد في اللجوء لاستعمال القنبلة الذرية. فبالنسبة للرئيس ترومان وللعديد من الأمريكيين، لم يكن اليابانيون فئرانا ولا كائنات أدنى من البشر. ومن جهة أخرى فحادثة الحرب التي أمامنا تتضمن مكونا إضافيا للبربرية وهو التقدم الخارق للعلم الذي وضع في خدمة مشروع تصفية تقنية-علمية لجزء من الإنسانية. أكرر القول أن حدوث الأسوأ أمر ممكن دوما.

وهكذا فما يجب تجنبه بأي ثمن بخصوص أروبا هو الوعي الجيد، والذي ليس إلا وعيا خاطئا على الدوام. يجب أن يفسح الاشتغال على الذاكرة المكان لانحسار تسلط البربريات : الاستعباد، النخاسة، الاستعمار، العنصرية العرقية، التوتاليتارية النازية والسوفييتية. واندماج هذا التسلط في فكرة أروبا، سيمكننا من إدماج البربرية في الوعي الأروبي. إنه شرط ضروري لتجاوز المخاطر الجديدة للبربرية. ولكن بما أن الوعي الشقي هو أيضا وعي خاطئ، فإن ما نحتاجه هو وعي مزدوج. فمن اللازم أن يُدمج في وعي البربرية الوعي بأن أروبا تنتج، عبر الإنسية، الكونيةَ والتطور التدريجي لوعي عالمي كما تنتج ترياق بربريتها الخاصة. إنه الشرط الآخر لتجاوز المخاطر الفعلية لأسوأ البربريات الجديدة.

لا يوجد شيء لا يقبل التحول إلى ضده، لذلك على الظروف الديمقراطية الإنسانية أن تتجدد باستمار وإلا فإن مآلها الانحطاط. تحتاج الديمقراطية لبعث الحياة في نفسها بشكل دائم. إن التفكير في البربرية هو المساهمة في إحياء الإنسية، وإحياء الإنسية يعني مقاومة البربرية.





معجم

antidote	ترياق
anthropocentrisme	نزعة متمركزة حول الإنسان
altermondialisme	الحركة من أجل عمولمة بديلة
antijudaisme	نزعة معادية لليهودية
mitisme antis	نزعة معادية للسامية
barbarie	بربرية
egocentrisme	تمركز حول الأنا
humanisme	الإنسية
homo sapiens	الإنسان المفكر
homo faber	الإنسان الصانع
homo economicus	الإنسان الاقتصادي أو المنتج
homo demens	الإنسان الهاذي والأحمق
homo ludens	الإنسان المستهلك
hybris	الافراط والمغالاة
rational	العقلانية
rationalidation	العقلنة
sur-moi	الأنا الأعلى
totalitarisme	التوتاليتارية



فهرس

إن التقنيات التي أنتجها الإنسان، مثلها في ذلك مثل الأفكار، ترتد ضده. وتعرض الأزمنة الحديثة أمامنا تقنية تنفلت من عقالها بتخلصها من الإنسانية المنتجة لها. نتصرف مثل سحرة في طور التدريب. إضافة إلى ذلك، تجلب التقنية نفسها بربريتها الخاصة، بربرية الحساب الخالص، البارد الجليدي الذي يجهل الوقائع العاطفية المميزة للبشر.

الثمن 30 درهما